
دراسات لاهوتيّة
لاهوت التّحرير في أفريقيا
ديزموند توتو واللاهوت الأسود
الأب وليم سيدهم
دار المشرق
بيروت

اهداءات ٢٠٠٤

دار المشرق
بيروت- لبنان

لاهوت التحرير في أفريقيا

ديزموند توتو واللاهوت الأسود

طُبع بمساهمة عائلة جرجي نعمة الله عقّاد



دراسات
لاهوتية

لاهوت التحرير في أفريقيا

الأب وليم
سيدهم

ديزموند توتو واللاهوت الأسود

لا مانع من طبعه

بولس باسيم

النائب الرسوليّ للاتين

بيروت في ١٩٩٧/٢/١٥

دار المشرق، ش. م. م. ص. ب. ٩٤٦، بيروت–لبنان

ISBN 2-7214-4813-7

التوزيع: **المكتبة الشرقيّة**

ص. ب. ١٩٨٦، بيروت–لبنان

تصميم الغلاف: **إيدا غالي**

مقدّمة

بعد أن لاقى كتاب **لاهوت التحرير في أمريكا اللاتينيّة** قبولًا حسنًا لدى القارئ العربيّ، شجّعنا الأصدقاء على عرض رؤية لاهوت التحرير الأفريقيّة.

وهذا الكتاب الذي بين يديك - عزيزي القارئ - يعتمد أساسًا على ترجمة بعض مقالات ومحاضرات ديزموند توتو (Desmond Tutu) - الحائز على جائزة نوبل للسلام - كتبها وألقاها في محافل مختلفة لتعريف قضيّة السود في جنوب أفريقيا خاصّةً واللاهوت الأفريقي عامّةً.

ونلفت نظر القارئ إلى أن اختيارنا شخصيّةَ ديزموند توتو وخطبه جاء باعتباره يمثّل تيّار التحرير في القارّة السوداء في أجلى صوره. فقد ظلّت جنوب أفريقيا الدولة الوحيدة التي تمثّل استمراريّة القهر الذي يعيشه الإنسان الأسود على أرضه مِن قِبَل العنصر الأبيض بِناءً على دعاوى دينيّة أو إثنيّة. وإن كانت انتخابات ١٩٩٤ وفوز نيلسون مانديلا - أشهر سجين في القرن العشرين - برئاسة الدولة بدّلت الواقع القانوني، إلّا أن الواقع

الاجتماعيّ والاقتصاديّ والثقافي المعقّد في البلاد ما زال يتحرّك ببطء شديد، إذ ما زال السود في قاع المجتمع هُناك.

ولكن يبقى أن السُّود في جنوب أفريقيا أثبتوا أنّهم شعب جدير بالاحترام، وهكذا تكلّل نضالهم بالانتصار على آليّة التفرقة العنصريّة التي حاولت أن تُنسي هذا الشعب هويّته وذلك بفضل رجال مثل ديزموند توتو ونيلسون مانديلا وستيڤ بيكو... إلخ. وإذا كان الشعب الڤيتنامي الأعزل استطاع أن يهزم بصموده الولايات المتحدة وهي أقوى دول العالم، واستطاع الشعب الفلسطيني أن يقاوم الاستعمار الصهيونيّ الاستيطانيّ بانتفاضة الحجارة، فإن عبقريّة الشعب الأسود في أفريقيا جعلته يقاوم جميع محاولات الإذابة والعزل والفصل بفضل صموده وإيمانه بأنّ حقوق الشعوب لا يمكن أن تضيع مهما تضاعفت أدوات القمع.

مضمون الكتاب

على منوال لاهوتيّي التحرير في أمريكا اللاتينيّة، فإن ديزموند توتو يضع قضيّة الإيمان أساسًا هامًا للمطالبة بتحرير السُّود من الظلم الذي أحاط بهم والذي ما زالوا يعانونه من جانب المستعمر الأبيض منذ القرن السادس عشر حتى هذه اللحظة، وإن نالت البلاد الاعتراف بحقوق السُّود.

وهكذا يصبح لاهوت التحرير في أفريقيا مبنيًا على التأمُّل في عمل الله في تاريخ البشر، في الحاضر والمستقبل، ويصبح كفاح ديزموند توتو نابعًا من شعوره بدعوة خاصّة من الله للمساهمة في تحرير شعبه المقهور.

ولأنّ المسيحيّة تؤمن بعقيدة التجسُّد ، أي بنزول الله من علياء سمائه ليعيشَ بين البشر ويخلِّصهم من شرور أنفسهم ، فإن علم اللاهوت يجمع بين عمل كلمة الله المتجسِّد في تاريخ البشر وحالة المؤمنين في زمان ومكان معيّنين .

واستنادًا إلى هذا المفهوم لعلم اللاهوت ، جاء ترتيب الكتاب كما يلي :

الباب الأوّل من الكتاب يركّز على أحداث التاريخ الّتي صاحبت ظهور لاهوت السُّود .

فالفصل الأوّل يتناول حياة ديزموند توتو منذ طفولته التعيسة، بصفته طفلًا أسود حُكم عليه أن يتجرّع كأس الذلّ كأقرانه السُّود ، إلى أن أصبح قسًّا إنجليكانيًّا، ثم تبوّأ مسؤوليّات جسامًا في كنيسة جنوب أفريقيا . كما يعرض الفصل علاقات توتو بمجلس الكنائس العالميّ ، وكفاحه ضد التفرقة العنصريّة الّذي تكلّل بحصوله على جائزة نوبل للسلام عام ١٩٨٤.

وفي الفصل الثاني رأينا أن نذكر أهم التواريخ والأحداث التي مرّت بها دولة جنوب أفريقيا منذ وصول المستعمر الأبيض في القرن السادس عشر الميلاديّ وحتى انتخابات ١٩٩٤ التشريعيّة وزوال المؤسّسات العنصريّة .

أمّا **الباب الثاني** ، فيشمل عرضًا وتحليلًا لأهم موضوعات لاهوت التحرير الأفريقيّ من خلال مقالات ديزموند توتو وخطبه. وقد حاولنا – قدر استطاعتنا – مراعاة الالتزام بالنصوص الأصليّة ، إلّا أنّنا تصرّفنا في ترتيب بعض المقاطع ، كما تمَّ تقسيم أحد المقالات الى فصلَيْن . وقد صنعنا ذلك لتلافي التكرار في بعض الخُطَب ، ولمراعاة ترتيب الأفكار .

فالفصل الثالث (اللاهوت خاصّ بالسُّود)، يُبرز خصوصيّة هذا اللاهوت النابع من موقف تاريخيّ يُحتِّم على السُّود، كشعب وجنس، أن يتحدَّثوا عن أنفسهم بأنفسهم، وأن يتحرَّروا من الصمت الذي فرضه عليهم اللاهوت الغربيّ.

والفصل الرابع (الباحث عن الأصالة والكفاح من أجل التحرير) يعرض أولى السمات الّتي تميِّز كُلًّا من اللاهوت الأفريقيّ ولاهوت السُّود: ألا وهي الاهتمام بقضيَّة الأصالة والهويّة الأفريقيّة في مواجهة الدعوة إلى استيراد القِيَم والأفكار اللاهوتيّة وغير اللاهوتيّة من الغرب.

والفصل الخامس يتعرّض لثاني القضايا التي تشغل لاهوتيّي جنوب أفريقيا، والتي تُعدّ سمة خاصّة من سمات لاهوت السُّود: فإن قضيّة الألم، ونظرة الأفارقة الى مشكلة الألم، تختلف عن نظرة الشعوب الأخرى. فالسؤال المطروح ليس: لماذا الألم؟ بل هو: لماذا يتألّم السُّود الأفارقة أكثر من غيرهم؟

وآخر القضايا الهامّة التي تناولها اللاهوتيّون السُّود هي قضيّة التفرقة العنصريّة. ولهذا فقد خصّصنا الفصل السّادس لأحد النصوص التي كتبها توتو، وفيها يهاجم التأويل المغلوط لآيات الكتاب المقدّس، الّذي استندت إليه الحكومات العنصريّة لتبرير سياسة التمييز العنصريّ، مُبيِّنًا هذا التأويل وتناقضه مع الإيمان المسيحيّ.

ولتحليل ديزموند توتو لهذا اللاهوت الّذي يعدّ هو نفسه من روّاده، خصّصنا الفصلين السابع والثامن:

والفصل السابع (هل اللاهوت الأفريقيّ هو لاهوت السّود؟) يتطرّق إلى العلاقة بين اللاهوت الأسود المُعبِّر عن موقف كنيسة جنوب أفريقيا وما

تعانيه من اضطهاد وقهر باسم الدين المسيحيّ، واللاهوت الأفريقيّ عامّة المُعبِّر عن مواقف لاهوتيّة أخرى في القارّة السوداء.

والفصل الثامن (لاهوت التحرير في أفريقيا) يتضمّن أهم ملامح لاهوت التحرير وأسلوبه وتحدّياته من خلال خبرة ديزموند توتو في أفريقيا.

وفي **الباب الثالث**، نختم الكتاب بمحاولة لإظهار الفرق بين لاهوت التحرير في أمريكا اللاتينيّة ولاهوت التحرير في أفريقيا[١].

وإلى القارئ الذي يتساءل عن أهمّيّة مثل هذا الموضوع لمنطقتنا العربية، نؤكّد أن مصر هي البوّابة الشماليّة الشرقيّة لقارّة أفريقيا، وهي عضو مؤسِّس في منظمة الوحدة الأفريقيّة. أضف إلى ذلك مساهمة مصر الفعّالة في مناصرة قضايا التحرُّر في أفريقيا منذ عهد جمال عبد الناصر حيث كانت حركة التحرير في جنوب أفريقيا تجد سندًا قويًّا في جمهوريّة مصر العربيّة بثقلها التاريخيّ والسياسيّ. كما أنّ القضايا الاقتصاديّة والسياسيّة قابلة للنمو في ظلّ السياسة الجديدة بعد إزالة العنصريّة وانتخاب نيلسون مانديلا كأوّل أفريقي أسود ليكون على رأس الدولة ومدّ الجسور بينه وبين الدول العربيّة.

لا شكّ أنّنا كعرب وكأفارقة، مسيحيّين ومسلمين، يهمّنا أن نفهم ما هي الخلفيّة الروحيّة والسياسيّة التي ساهمت في تحرير إخوتنا السُّود من نظام بغيض استنزف طاقاتهم لأكثر من ثلثمائة سنة.

فإنّ الحوار الحقيقيّ بين الشعوب يقوم على أساس التفاهم حول

---

(١) هذا الفصل نُشر في مجلّة **المشرق** اليسوعيّة البيروتيّة في عدد يناير - يونيو ١٩٩٦.

خصوصيّات كل بلد وحول ثقافته خاصة، إذا كان هذا البلد يشكّل معنا وحدة جغرافيّة وينتمي إلى قارة معينة مثل أفريقيا، بما تحمل من هموم وشجون .

وفي نهاية هذه المقدّمة أودُ أن أتقدم بجزيل الشكر لكل الذين شجّعوا وساندوا ظهور هذا الكتاب : الأب كميل حشيمه اليسوعيّ، مدير دار المشرق ببيروت، وهو أوّل من طلب إليّ إعداد كتاب لاهوت التحرير في أمريكا اللاتينيّة . .. والأب فاضل سيداروس اليسوعيّ الذي رافق ظهور الكتاب في مسوّدته، والإخوة أيمن جورج ورامي كرم اللذين أفاداني بملحوظاتهما القيّمة وساهما في إخراج هذه المخطوطة النهائيّ . إليهم جميعاً وإلى سواهم أتقدّم بوافر الشكر والامتنان .

القاهرة ، يناير ١٩٩٧

الباب الأوّل

لمحة تاريخيّة

المطران ديزموند توتو

(جائزة نوبل للسلام عام ١٩٨٤)

مَن هو ديزموند توتو ؟

وُلِد ديزموند مپيلو توتو (Desmond Mpilo Tutu) في ٧ أكتوبر ١٩٣١ في منطقة شعبيّة تقع بجانب حيّ للبيض في مدينة كليركْسْدورپ (Klerksdorp) في مقاطعة ترنسڤال (Transvaal) بجنوب أفريقيا غربي جوهانسبرج (Johannesburg) على بعد ١٨٠ كلم منها .

كان والده معلِّماً في مدرسة ابتدائيّة . وقَبِل الطفل ديزموند المعموديّة في جماعة من الميثوديست (Methodist)، ولكنه انتمى في ما بعد إلى الكنيسة الأنجليكانيّة ، شأنه شأن اخته .

ثم عُيِّن والده مديرًا لمدرسة في مدينة صغيرة تُدعى فِنْترسْدورْپ (Ventersdorp) بالقرب من جوهانسبرج . وكان قد أهداه درّاجة فرح بها الصغير ، وكان يذهب بها إلى المدينة ليشتري الجرائد والسجائر لوالده . وفي الطريق كان يَلْقى معاكسات من الأطفال البيض ، الذين كانوا يلتفّون حوله ويدفعونه من على دراجته ويركلونه بأرجلهم ويدعونه «الأسود كالفحم» . ومع مرور الوقت ، اكتشف الصبي أنّه ينتمي إلى طبقة حقيرة من البشر ، وأنّ عليه أن يظلّ كذلك .

وإن رجعنا إلى الاحصائيّات الخاصّة بالتعليم، نكتشف أنّ الحكومة العنصريّة كانت تُنفق على الطفل الأبيض ما يوازي خمسة عشر أضعاف ما تُنفقه على الطفل الأسود.

واصل ديزموند دروسه في مدرسة داخليّة تابعة للإرساليّة السويديّة في مدينة رودْپورت (Roodeport) ثمّ في مدرسة مخصّصة للسود في جوهانسبرج. وفي عام ١٩٤٥، انتقلت عائلته الى القرب من مدينة كروجِرسْدورپ (Krugersdorp) إلى مدينة جديدة - مونْسيڤيل (Munsieville) - قد أقيمت للسود خاصّةً.

وفي هذا الوقت أُصيب الصبي بمرض السلّ فأقعده طريح الفراش مدّة عشرين شهرًا في مستشفى صوفيا تاوْن (Sophiatown) التابع للآباء الأنجليكان في «جماعة القيامة». وفي أثناء مرضه، تعرّف إلى الأب تريڤور هادْلِسْتون (Trevor Haddleston) الذي كان من أشدّ المعارضين لسياسة التفرقة العنصريّة، وقد ترك في حياة ديزموند أثرًا بالغًا لم يُمحَ من ذاكرته.

وقد وصف ديزموند هذا الشخص بأنّه «ذو شخصيّة مرحة للغاية، وذو روحانيّة عميقة، يفيض حبًّا وعذوبة،». ويُرجع ديزموند دخوله سلك الكهنوت إلى هذا اللقاء الذي تمّ بينه وبين تريڤور. كما أنّ هذا التأثير البالغ جعله يُسمّي ابنه على اسمه محبّة ووفاء له.

وبعد شفائه، حصل على شهادة البكالوريا. وابتداء من عام ١٩٥٠، التحق بجامعة «بانْتو نورْمَلْ كولِّدْج» (Bantu Normal College) في بريتوريا (Pretoria)، مدّة ثلاث سنوات. وكان يتمنّى أن يصبح طبيبًا، إلّا أنّ إمكانيّاته الماليّة لم تسمح له - هو الأسود - بتحقيق هذه الأمنية؛ فعمل مدرِّسًا في جوهانسبرج وكروجِرْسْدروپ، إلّا أنّه لم يحتمل

الاستمرار طويلًا بسبب طريقة التعليم «البانتوِيّة» لما كانت تبثّه من قِيَم حكوميّة عنصريّة.

وتزوّج من لِيا شِنْكْسان (Leah Shenxane) في عام ١٩٥٥ وأنجب منها أربعة أطفال: صبيًّا سمّاه تريڤور (Trevor) وثلاث بنات هن: تاندي (Thandi) وناعومي (Naomi) ومْفو (Mpho) وبعد هذا الاستقرار العائلي، قرّر أن يصبح كاهنًا في الكنيسة الأنجليكانيّة.

استقبله المطران أمبروسيوس ريڤْس (Ambrose Reeves) في كلّيّة القدّيس روزِتِنْڤيل (Rosettenville) بجوهانسبرج، ليأخذ نصيبه من التكوين اللاهوتيّ في إطار «جماعة القيامة». وهناك اكتشف أهمّيّة حياة الكاهن الروحيّة. فكان تعجّبه شديداً ممّا كان يقضيه الإخوة من أوقات طويلة في الصلاة. كما أنه اكتشف أهمّيّة سرّ الإفخارستيّا وحياة التأمّل والرياضات الروحيّة. وفي عام ١٩٨٢، صرّح بأنّ لقاء الرب من خلال الصلاة اليوميّة أصبح له ضرورة حياتيّة، يفقد بدونها قدرته على مواجهة أعبائه، وحتى معنى رسالته.

رُسم ديزموند شمّاسًا إنجيليًّا في عام ١٩٦٠، وفي العام نفسه أطلق البوليس النار على الجماهير التي خرجت في مظاهرة سلميّة في مدينة شارْپْڤيل (Sharpeville)، فأوقع ٦٩ قتيلًا و١٨٦ جريحًا. ورُسم كاهنًا في عام ١٩٦١ في الكاتدرائيّة الأنجليكانيّة في جوهانسبرج. وعُيِّن راعيًا في شرق جوهانسبرج.

وفي عام ١٩٦٢، ذهب إلى إنجلترا لاستكمال دروسه اللاهوتيّة في «الكلِّيّة الملكيّة» (King's College)، وهُناك حصل على الليسانس والماجيستير في العلوم اللاهوتيّة. وفي أثناء دروسه، كان يخدم في كنيسة

القدّيس ألبانس (St Albans) وفي مجلس الكنائس العالميّ. وبعدها رجع إلى جنوب أفريقيا في عام ١٩٦٦.

مُدرِّس اللاهوت الأسود

من ١٩٦٧ حتّى ١٩٦٩، عَمِل توتو مدرّسًا للّاهوت في مدينة أليس (Alice) في مقاطعة الكاپ (The Cap). ثمّ، من ١٩٧٠ حتّى ١٩٧٢، كان ما بين روما وليسوتو (Lesotho) مُدرِّسًا للّاهوت ومرشدًا روحيًّا للطلبة. وهكذا رجع ديزموند إلى وظيفته الأصليّة في مجال التدريس - وجدير بالذكر أنّه، في عام ١٩٦٩، تأسّست «منظّمة طلبة جنوب أفريقيا»[١] رافعةً شعارَي: «تضامن السود» و«تحرير السود» وقد وضعت في أولويّاتها الوعي للشخصيّة السوداء، وكان الشعاران مُناهضَين للعنصريّة البيضاء.

وفي عام ١٩٧٢، عُيِّن ديزموند توتو في لندن مسؤولًا عن ميزانيّة برنامج للتعليم اللاهوتيّ التابع لمجلس الكنائس العالميّ. وكان هذا البرنامج يولي اهتمامًا خاصًّا للتكوين اللاهوتيّ المناسب للمرسَلين ولا سيّما في بلاد العالم الثالث. وهكذا اتّسع نطاق نشاط ديزموند توتو ليشمل مراكز التكوين اللاهوتيّ في أفريقيا، والاهتمام بتأسيس المكتبات الخاصّة بهذه

---

(١) SASO: South Africa Student Organization وقد اختير ستيف بيكو (Steve Biko) أوّل رئيس لهذه المنظّمة التي كان مقرّها في البداية المعهد اللاهوتيّ بمدينة أليس، حيث كان ديزموند توتو يدرّس. وقد ألقى ديزموند توتو عظة الجنّاز عند موت هذا القائد الأسود العظيم بعد مقتله في عام ١٩٧٧. ويبيِّن ذلك الصلة الوثيقة بين هذه المنظّمة ومؤسسها وديزموند توتو.

المراكز، واختيار الكتب المناسبة لترجمتها إلى اللّغات الأفريقيّة، وتنمية نوع من الفكر اللاهوتيّ المتناسب مع الظروف الأفريقيّة؛ أو بمعنى آخر، تنقية الفكر اللاهوتيّ من الأفكار والقيم الاستعماريّة؛ فخلق بذلك «تيّارًا لاهوتيًّا أسود».

وغنيّ عن التعريف أنّ مصطلح «اللاهوت الأسود» لم تخترعه كنيسة جنوب أفريقيا، بل هو وليد أمريكا الشماليّة. فقد نشر جيمس كون (James H. Cone) في عام ١٩٦٩ أوّل كتاب يتحدّث عن هذا المصطلح، وكان عنوانه: **اللاهوت الأسود والسلطة السوداء** *Black Theology and Black Power*. ودخل هذا المصطلح إلى جنوب أفريقيا في عام ١٩٧١ من خلال المؤتمر الذي عقدته في ذلك العام الطوائف المسيحيّة المختلفة في المعهد الكاثوليكيّ بهامّانسْكْرال (Hammanskraal) بواسطة «الحركة المسيحيّة الجامعيّة». فأصدر المؤتمر بيانًا من أجل «فكر لاهوتيّ أسود». وفي هذا البيان تعريف لهذا التيّار اللاهوتيّ الجديد.

إنّ الإيمان المسيحيّ، الذي تُبشّر به الكنائس التي يسيطر عليها البيض، أظهر بما لا يدع مجالًا للشك أنّه في خدمة الأمر الواقع، وأعني بذلك الاحتفاظ بواقع القهر الذي يعانيه السود.

ولهذا السبب، فنحن ننطلق في إيماننا من أسس جديدة لنجعل من الرسالة المسيحيّة رسالة شفاء وخلاص لشعب الله. ومن أجل هذا أيضًا، نضمّ أصواتنا إلى أصوات حركة «الفكر اللاهوتيّ الأسود».

وليس هذا «الفكر اللاهوتيّ الأسود» فكرًا لاهوتيًّا يتحدّث عن المنطق المجرّد، بل هو موقف وجوديّ. فليس هو «لاهوتاً للعمل» ولا «لاهوتاً للتنمية» ولا «ردّ فعل»، بل التعبير الأصيل والإيجابيّ عمّا نعرفه عن الله في

ضوء تجربتنا باعتبارنا سودًا.

إنّ نقطة انطلاق هذا الفكر اللاهوتيّ هو الإعلان الذي استهلّ به يسوع رسالته في العالم: «روح الربّ عليّ لأنّه أرسلني لأُعلن البُشرى للفقراء والخلاص للذين في القيود» (لو ٤: ١٨). إنّ الفكر اللاهوتيّ الأسود هو لاهوت الإنسان الأسود في ضوء رسالة المسيح المحرِّر. وبناءً عليه، فإنّنا نرفض تفسير الرسالة المسيحيّة المُشوّه الذي تفرضه على الشعب الأسود الكنائس التي يسيطر عليها البيض. ونحن نرى أنّ رسالة التحرير التي أتى بها المسيح لا تنحصر في التحرّر من العبوديّة الشخصيّة الداخليّة، بل تتّسع لتشمل التحرّر من قيود العبوديّة الخارجيّة. إنّ رسالة المسيح – كما يراها «الفكر اللاهوتيّ الأسود» – تعني ضرورة العمل الصائب لتحرير الشعب الأسود، لا من ابتعاده عن الله فقط، بل من عقليّة الاستسلام للعبوديّة أيضًا، ومن عقدة النقص التي يعانيها، ومن عدم ثقته بنفسه، ومن تبعيّته المستمرّة للآخرين التي أفضت به إلى أن يُبغض ذاته»[٢].

إنّ ديزموند توتو قد اشترك بفعاليّة في الصحوة النبويّة، صحوة كنيسة جنوب أفريقيا. فمنذ العام ١٩٧١، قبل رحيله إلى لندن، نشر مقالًا بعنوان له دلالته: «هل الله أبيض أم أسود؟» في مجلة **الخدمة الكهنوتيّة** (Ministry, 1971 No 4)، يدعو فيه إلى إعادة توجيه الدروس اللاهوتيّة، كي تواجه القضايا الحيويّة المطروحة على المسيحيّين في لحظة معيّنة ومكان مُعيّن. أمّا عن المسيحيّين السود في جنوب أفريقيا فإنّ ما يُسبّب أزمة الإيمان

---

(٢) راجع كتاب: *Chrétiens d'Afrique du Sud face à l'Apartheid,* l'Hartmattan. Paris 1978, pp. 58-59.

عندهم هو قضيّة الألم : لماذا يتحمّل السود بالذات هذه الآلام الفظيعة ؟ وكيف لا ييأسون من الله بسبب هذا القهر الجسديّ ؟

ويعرض ديزموند توتو محاولة للردّ على هذا التحدّي الوجوديّ ، في كلمات سيكرّرها في عام ١٩٧٣ ، وفحوى هذا الردّ هو : إذا كان الشعب الأسود بأغلب الأحيان في إطار «جُمعة الصليب» ، فعليه أن يعرف أنّه على موعد مع «أحد القيامة» . وكذلك فعليه أن يُرافق المسيح على طريق الجلجلة كي يكون له نصيب في مشاركته مجد قيامته .

ديزموند توتو عميدًا لكاتدرائيّة جوهانسبرج ثم أسقفًا لليسوتو

اكتسب ديزموند توتو خبرة لا بأس بها في العمل المسكوني في أثناء عمله بلندن في منصب المسؤول عن التعليم اللاهوتيّ . وفي عام ١٩٧٣ اشترك في اجتماع لجنة مجلس الكنائس العالميّ المركزيّة في جنيف . وفي عام ١٩٧٤ شارك في مؤتمر «الإيمان والدستور» في أكرا (Accra) عاصمة غانا . وأصبحت لديه رؤية عالميّة للأمور ومعرفة شخصيّة لمشاكل العالم .

وفي عام ١٩٧٥ ، وهو في لندن ، عُيِّن عميدًا لكاتدرائيّة العذراء القدّيسة في جوهانسبرج ، وكان أوّل أفريقيّ أسود يُعيَّن في هذا المنصب : ولكنّه رفض السكن المريح في الحي الأبيض الراقيّ – وقد كان بإمكانه السكن فيه بتصريح خاص – مُفضِّلًا بالأحرى السكن مع أسرته في الحيّ الأسود في «سويتو» (Soweto). ولم تحصل أسرته إلّا على تصريح سكن مؤقّت ممّا جعله يعلّق على هذا الموقف بقوله : «نحن زائرون غير مستقرّين في بلدنا ، في حين أنّ أيّ مهاجر أبيض قادم من أوروبا يتمتّع بحق التنقّل والعمل في أيّ مكان» .

وكان من الطبيعيّ، بعد إقامته في بريطانيا، أن يجد صعوبة في التأقلم ثانيةً والنظام العنصريّ في بلاده. ولكنَّه وقف في صفّ شعبه، مُتَّبعًا سياسة اللاعنف. فحاول أن يتوجّه إلى ضمير الإنسان الأبيض. وكان يرى في حديث الإنسان الأسود إلى الأبيض في بلده أعجوبة. وعلى الرغم من رفضه للعنف، فإنّه كان يعلم تمام العلم أنّ الناس، في المواقف التي يصلون فيها إلى حافّة اليأس، يستخدمون وسائل يائسة أيضًا، وهي الوسائل العنيفة. وقد خصّص وقتًا للصلاة في الكاتدرائيّة مساء كلّ يوم جمعة من أجل العدالة والمصالحة في جنوب أفريقيا. ولأنّه كان يستشعر الخطر المهيمن، وكان يخشى انفجار العنف وسفك الدماء بسبب المظالم والقهر المتصاعد في البلاد، فقد وجّه خطابًا مفتوحًا - في مايو ١٩٧٦ - إلى رئيس وزراء جنوب أفريقيا ڤورستر (Vorster).

وكان الخطاب معتدلًا، ولكنّه حازم في لهجته، ف «هناك حدود لقدرة احتمال أيّ شعب». إلّا أنّ ردّ رئيس الوزراء - والذي لم يُنشر - اتّهم ديزموند توتو بالتخريب السياسي.

وبعد أسابيع قليلة من هذا الموقف، انفجرت المظاهرات بين الطلبة في سويتو. وأدّى قهر الحكومة لبعض هذه المظاهرات إلى تأخير محاولات المصالحة وإقامة العدالة. وقد علّق ديزموند توتو على هذه الأحداث بقوله: «إنّ الذين يتولّون زمام الحكم في هذا البلد وطّدوا العزم على المضيّ قُدُما في طرق محفوفة بالصدامات مع حقائق التاريخ. إنّهم على حافّة هاوية ستُؤدّي حتمًا إلى كارثة لا مفرَّ منها».

وكان ديزموند توتو يرى أنّ الحقد الذي يملأ قلوب الأجيال الشابّة هو وليد العنف المؤسَّس الذي تمارسه الدولة العنصريّة. وعلى الرغم من ذلك،

لم يفقد القسّ الأنجليكانيّ إيمانه بإمكانيّة الوصول إلى الاعتراف المتبادل بحقوق عُنصرَي البلاد.

وفي صيف عام ١٩٧٦، اختير ديزموند توتو أسقفًا لليسوتو، وكان هذا الاختيار سببًا في التمزّق الذي عاناه، مع أنه لم يمضِ وقت طويل عليه في منصبه كعميد لكاتدرائيّة جوهانسبرج. ذلك لأنّ ليسوتو استقلّت منذ عام ١٩٦٦، فكانت بلداً حرّاً، ولكنّها فقيرة، فتخضع من الناحية الاقتصاديّة خضوعًا تامًّا لدولة جنوب أفريقيا. وشرع ديزموند توتو يتأقلم مع الوضع الجديد، وصمّم أن يكون راعيًا قريبًا من كهنته ومن شعبه. ولم يبخل عليهم بوقته ولا بحُبّه. وقد قال في هذا الصدد: «**لا تستطيع أن تكون مرشدًا روحيًّا لشعب بدون أن تقع في حُبّه**».

ومع ذلك، فإنّ الأسقف الجديد ظلّ يساوره شعور بتأنيب الضمير بسبب ابتعاده عن جنوب أفريقيا التي كانت تعاني العنصريّة، فبلده الأصليّ هو مكان رسالته الأولى، حيث يكافح إخوتُه وأخواتُه من أجل الحرّيّة. وكان يرى أنّه، رغم معاناة شعب ليسوتو من الفقر والفاقة، كان وضعهم أقلّ مهانة من وضع شعب جنوب أفريقيا الرازح تحت نير العبوديّة والتفرقة العنصريّة.

وحينما عُيّن في عام ١٩٧٨ سكرتيراً عامًّا لمجلس كنائس أفريقيا الجنوبيّة، قَبِل ذلك بفرح، لاسيّما وأنّ زوجته قد عُرض عليها أن تتولّى مسؤوليّة نقابة تَجْمَع مختلف العاملين في المنازل.

في قلب الصراع بين الكنائس

يغلب على سكّان دولة جنوب أفريقيا الطابع الدينيّ، فأكثر من ٨٠٪

من سكانها ينتمون إلى كنائس مسيحيّة، بالإضافة إلى سائر الأقلّيّات الدينيّة القويّة، مثل اليهوديّة والهندوسيّة والإسلاميّة.

ومع وصول ديزموند توتو إلى أمانة سرّ مجلس كنائس أفريقيا، يجدر بنا أن نلقي نظرة على تكوين الكنائس المسيحيّة في البلاد. فمن المعروف أنّ في جنوب أفريقيا ثلاثة أنواع من الكنائس: الكنائس الهولنديّة، والكنائس الإنجليزيّة، والكنائس الأفريقيّة المستقلّة.

أمّا النوع الأوّل، فتجدر الإشارة إلى أنّ الكنائس الإصلاحيّة الهولنديّة الثلاث قد اختلقت مُبرّرات لاهوتيّة لتبرير نظام الفصل العنصريّ في جنوب أفريقيا. وكان أعضاء هذه الكنائس يُشكّلون في عام ١٩٧٠ حوالى ٨٧٪ من ماذا، ممّا يطلق عليهم في جنوب أفريقيا اسم «أفريكانرز» (Africaners)، و٤٩٪ من مجموع سكان جنوب أفريقيا البيض. وأكبر هذه الكنائس الثلاث هي ما يطلق عليها اسم «الكنيسة الهولنديّة الإصلاحيّة» (Nederduitse Gereformeerde Kerk (NGK) ويُطلق عليها أحيانًا اسم «الحزب الوطني المُصلّي». وانتمى إليها الحزب الحاكم من ١٩٤٨ وإلى نهاية الفصل العنصريّ. والعلاقات بين رعاة هذه الكنيسة والطبقة السياسيّة الحاكمة علاقات قويّة ومتداخلة.

وأمّا **النوع الثاني** من الكنائس، فهو مكوّن من «الكنائس الإنجليزيّة». مثل الكنيسة المثوديستيّة والأنجليكانيّة والمشيخيّة والمجمعيّة واللوثريّة والكاثوليكيّة. وإنّ هذه الكنائس تجمع أجناسًا مختلفة من حيث العقيدة، إلّا أنّ الحواجز السكنيّة واختلاف اللغات جعل من رعاياها مؤمنين ينتمون إلى جنس معيّن.

وممّا لا شكّ فيه أنّ الكنيسة الأنجليكانيّة التي ينتمي إليها ديزموند توتو كانت أكثر الكنائس هجومًا على التفرقة العنصريّة. وقد دفعت ثمن هذا الموقف بمعاقبة السلطات المدنيّة بعض مسؤوليها، ففقدت بعض أعضائها والكثير من شعبيتها. وأمّا الكنيسة الكاثوليكيّة، والتي تُعتبر كنيسة السود (٧٢،٤٪ من أعضائها من السود)، فقد بدأت، منذ عام ١٩٥٧، في مهاجمة سياسة التفرقة العنصريّة بصفتها «موقفًا فاسدًا من الأساس»، فاضحة «التجديف» الذي يرتكبه البيض الذين يضْفون طابع «رسالة إلهيّة» على موقفهم ومعاملتهم وعملهم. ولكن رئاسات الكنيسة الكاثوليكيّة في جنوب أفريقيا ظلّت في مجملها من البيض - ففي عام ١٩٧٤ مثلًا، كان هناك ٢٦ أسقفًا أبيض - ولذا اعتبر الأساقفة الكاثوليك أنفسهم «مُرائين» إن كانوا يهاجمون التفرقة العنصريّة في جنوب أفريقيا ويسمحون في الوقت نفسه بالتفرقة عينها في داخل مؤسّساتهم الكنسيّة.

وأمّا النوع الثالث، أي الكنائس الأفريقيّة المستقلّة، فقد نظر الأجانب إليها نظرة احتقار، إذ يبدو على هذه الجماعات الكنسيّة السوداء الفقر المدقع والأمّيّة المتفشّية فيها، بلا بنية ولا تنظيم: وبالرغم من ذلك، فإنّها كانت تشهد مجهودًا ضخمًا لتجسيد المسيحيّة في المجتمع الأفريقيّ، ولذا كانت تنمو عدديًا نمواً سريعًا ومباغتًا. ففي عام ١٩٨٤، بلغ عدد الكنائس حوالى ٤٥٠٠ كنيسة تضمّ حوالى أربعة ملايين مسيحي أفريقيّ. وفي مدينة سويتو مثلًا، بلغ عدد هذه الكنائس ٩٠٠، كلّ واحدة مختلفة عن الأخرى: والحقّ يُقال إنّ الحكومة العنصريّة البيضاء شجّعت مثل هذه الانقسامات بين السكّان الأفارقة، خشيةً منها أن ينظّم السود أنفسهم بشكل جماعيّ، فسيُسبّب لها مشاكل لا حصر لها.

لنرجع إلى «مجلس كنائس جنوب أفريقيا»، وهو يمثّل في الواقع المؤسّسة الوحيدة المعترَف بها رسميًّا والتي ينتمي أعضاؤها إلى أجناس مُختلفة. ففي عام ١٩٧٨، كان هذا المجلس يمثّل أكثر من ١٠ ملايين مسيحيّ، منهم ١٠٪ فقط من البيض.

وأمّا الكنائس الكبرى المُمثَّلة في المجلس، فهي الكنائس الإنجليزيّة التي ذكرناها من قبل ما عدا الكنيسة الكاثوليكيّة الممثَّلة فقط بصفتها «مراقبًا».

وقد تسبَّبت المواقف الجريئة التي اتّخذها مجلس الكنائس في هياج بين صفوف المناصرين لسياسة الفصل العنصريّ. ففي عام ١٩٦٨، أدان المجلس بشكل رسميّ سياسة الفصل العنصري بصفتها سياسة معادية للديانة المسيحيّة، ووصفها بالهرطقة وبأنّها «إنجيل آخر». فما كان من أعداء المجلس العنصريّين إلّا واعتبروه «قاعدة انطلاق السلطة السوداء»، بما يضمّه من ثوّار مرتبطين بمجلس الكنائس العالميّ، ورأوا أنّ المجلس في ذلك يمهّد الطريق إلى انقضاض الشيوعيّة على البلاد.

وفي حقيقة الأمر، لم يكُن تعيين ديزموند توتو على رأس مجلس كنائس جنوب أفريقيا بالأمر الهيّن؛ فقد كان المطلوب في ذلك الوقت إيجاد شخص على رأس هذه المنظّمة بمواصفات معيَّنة، أوّلها أن يقبله أعضاء المجلس البيض من ناحية، وأن يكون قريبًا جدًّا من تطلّعات المسيحيّين السود المشروعة من ناحية أخرى. وكانت شخصيّة ديزموند توتو هي الأقرب من هذه المواصفات. وشرع بخُطى سريعة في العمل على تنشيط القطاعات المختلفة في المجلس: «العدالة والمصالحة»، «الرسالة والبشارة»، «مساعدة الكنائس في مجال التنمية»، «مساعدة السجناء السياسيّين وعائلاتهم»، «صندوق التضامن»، «الزواج والعائلة».

وجدير بالذكر أنّ ديزموند توتو قد بدأ مهمّته كأمين عام لمجلس كنائس جنوب أفريقيا بعد بضعة شهور من إلغاء ١٨ منظّمة سوداء بتاريخ ١٩ أكتوبر ١٩٧٧، وكانت هذه المنظّمات تمثّل تيّار «الوعي الأسود». وبذلك أصبح المجلس في جنوب أفريقيا من المؤسّسات المشروعة النادرة التي ترفع صوت المقهورين، ومن هنا يمكن تفهُّم الاتّهامات المتعدّدة التي وجّهتها الحكومة العنصريّة إلى هذا المجلس وإلى أمينه العامّ ديزموند توتو.

وفي عام ١٩٧٩، أعلن ديزموند توتو: «نحن، أعضاء مجلس كنائس جنوب أفريقيا، نؤمن بأن جنوب أفريقيا كيان واحد غير عنصري، إذ إنّ لكلّ إنسان فيها قيمته، لأنّه مخلوق على صورة الله، وأنّ مجلس الكنائس العالميّ ليس منظّمة سوداء أو منظّمة خاصة بالبيض، بل هو منظّمة مسيحيّة تعتني بالمضطهَدين والمستغَلّين في مجتمعنا. وعليه فإنّنا – نحن الذين نمثّل مكتب المنظّمة – نعتبر أنفسنا رمزًا لما يجب أن تكون عليه جنوب أفريقيا الجديدة. فجميع الأجناس في جنوب أفريقيا ممثّلة في هذا المكتب، ونحن نقوم بعمل جماعيّ بإدارة أمين عام وهو بالصدفة أسود». وألحّ ديزموند توتو على الطابع المسيحيّ – لا الطابع السياسيّ – لهذا المجلس، فقال: «على مثال المسيح سيّدنا، نحن مدعوّون إلى العمل من أجل السجناء والفقراء والمقهورين والمعزولين والمحتقَرين».

وتوالت الاتّهامات على مجلس كنائس جنوب أفريقيا بالشيوعيّة والدعاية لها، كما أنّه لم يُعفَ من الاتّهام بالاختلاسات الماليّة ... وهكذا كان وزراء الحكومة يتبارون في توجيه الاتّهامات جُزافًا إلى المجلس، وكانوا يلومون المجلس لدفاعه عن السجناء، واتّخاذه الإجراءات القانونيّة لمناصرتهم. وصرّح ديزموند توتو في تعليقه على هذه الاتّهامات بقوله: «إذا

كان الدفاع عن الضعفاء يُعدّ جريمة، فنحن فخورون بأن نُقِرَّ بذنبنا».
وكان يقول إنّ مجلس كنائس جنوب أفريقيا يريد أن يكون أداة طيّعة بين يدي الرب في سبيل تحرير جميع أبناء الشعب والمصالحة. وكان السؤال الذي يطارد ديزموند توتو هو: «ماذا يطلب المسيح مني شخصيًا؟» وكان يضيف أنّه، لو أُجبر مجلس كنائس أفريقيا على الصمت، لما استطاع أحد أن يبطل عمل الله التحريريّ وأن يمنعه من الظهور على خريطة الواقع.

«إنّ تفويضنا نابع من الله لا من البشر»

أصبح ديزموند توتو في نهاية السبعينات من أبرز الوجوه المسيحيّة المعارضة لسياسة التفرقة العنصريّة في جنوب أفريقيا. وعلى الرغم من ذلك، فإنّه لم يفُز بإجماع الشباب السود، لأنّهم رفضوا سياسة اللاعنف ولجأوا إلى حمل السلاح بسبب يأسهم من سياسة الحكومة المتشدِّدة في البلاد.

وعلى الرغم من أنّ ديزموند توتو كان يدعو إلى التغيير الجذريّ، كان يضيف: «بالأسلوب السلميّ ما أمكن». وكان يدعو الشعب إلى عدم الخضوع للقوانين الجائرة، لأنّ سياسة الفصل العنصريّ منظومة ظالمة وغير أخلاقيّة وفاسدة بكلّ ما تحمله الكلمات من معانٍ، ولذا فلا تنازلات أمامها. إلّا أنّه كان يرفض العنف والمقاومة المُسلَّحة.

ومع مرور الوقت، أنضجت التجاربُ خبرةَ هذا القائد الأسود. ويكفي أن نقرأ عناوين كتاباته التي تعبِّر عن أفكاره على مرّ رحلة حياته، حتّى نتأكّد من ذلك، مثل: «أفريقيا الجنوبيّة كما أحلم بها»، «تحدِّيات الثمانينيّات»، وأصبحت رؤيته للمجتمع تحمل هموم التحرير ومعاني العمل الجماعيّ وضرورة الإبداع والمشاركة. فكان يبحث عن نظام اقتصاديّ

اجتماعيّ يضع في أولوياته قيمة المشاركة والعطاء، ولا يرضخ لقيمة البحث عن الربح بأي ثمن: وكان يحلم بجنوب أفريقيا يتمتّع فيه كلّ فرد بحقوق المواطنة ويتساوى فيه الجميع أمام القانون.

وفي أوّل مؤتمر عُقد تحت إشراف ديزموند توتو الأمين العام الجديد لمجلس كنائس جنوب أفريقيا في عام ١٩٧٩، صدر قرار وافق عليه الحاضرون يؤكّد فيه أنّ الطاعة لله هي قبل الطاعة للبشر، موصيًا الأعضاء بأن ينسحبوا من كلّ شكل من أشكال التعاون مع الدولة. وكان ردّ فعل الحكومة المباشر اعتبار هذا القرار تحريضًا على العصيان. فردّ ديزموند توتو بقوله: «**حينما ينشأ تعارض بين شريعة الله وشريعة البشر، لا يبقى أيّ احتمال للمناقشة، لأنّ تفويضنا نابعٌ من الله لا من البشر، ولأنّ القرارات التي تبنّاها المؤتمر السنوي لم يُقرّرها يساريّون متشنّجون، بل رؤساء الكنائس، وهم على درجة عالية من المسؤوليّة**».

وبعد هذا المؤتمر، وفي العام ١٩٧٩ نفسه، اتّهم ديزموند توتو – في مقابلة مع التلفزيون الدانمركيّ – الاستثمارات الأجنبيّة في جنوب أفريقيا بتواطؤها مع الحكومة العنصريّة. فاعتبَر هذه الاستثمارات دعمًا ومساندة لنظام التفرقة العنصريّة في البلاد؛ وأمّا مصير السود، فلا يُمكن أن ينمو نحو الأفضل في ظلّ هذه الاستثمارات، فلن يصبح مصيرهم أفضل إلّا حينما يتغيّر الوضع السياسي في البلاد. ودعا توتو إلى الكفاح ضدّ العنصريّة بوسائل متعدّدة مثل المقاطعة وعدم التعاون مع الحكومة.

وتسبَّبت هذه التصريحات في أن قامت حكومة جنوب أفريقيا بحملة عنيفة ضدّ توتو، فسحبت منه السلطات جواز السفر في مارس من عام ١٩٨٠. إلّا أنّ هذا الإجراء لم يمنعه من أن ينتقد قرار الحكومة بحبس

جون ثورن (John Thorne) الأمين العام السابق لمجلس كنائس جنوب أفريقيا، ممّا جعل السلطات تقبض على ديزموند، فأمضى ليلة في السجن بسبب هذا الموقف الجريء.

وقام رئيس الوزراء بوتا (P.W. Botha) بحملة ضدّ مجلس كنائس جنوب أفريقيا والمطران توتو، واتّهم أعضاء المجلس بمساندة ما وصفه بمجموعات إرهابيّة في البلاد، بالإضافة إلى اتّهامهم باختلاس الأموال التي كانوا يجمعونها من الشعب. وكانت استراتيجيّة رئيس الوزراء محبوكة، إذ كان غرضها شلّ حركة مجلس كنائس جنوب افريقيا عن طريق قطع علاقات هذا المجلس مع المراسلين الأجانب، وكذلك مع مجلس الكنائس العالميّ الذي كان يُغطّي ٩٠٪ من ميزانيّة مجلس كنائس جنوب أفريقيا.

وفي ٧ أغسطس ١٩٨٠، عُقد مؤتمر للقمّة بين حكومة جنوب أفريقيا ومجلس الكنائس، لم يسفر عنه إلّا إعادة جواز السفر إلىالمطران ديزموند توتو في بداية عام ١٩٨١.

ولم ينتظر ديزموند توتو طويلًا ليستفيد من السماح له بالسفر، فذهب لمدّةخمسة أسابيع إلى أوروبا وأمريكا الشماليّة. وفي كلّ مكان كان يقدِّم نفسه بصفته «صوتَ مَن لا صوت لهم»، و«المتحدّث باسم ملايين الناس». وركّز مرّة أخرى في مقابلاته ومحاضراته على ضرورة ممارسة الضغوط السياسيّة والاقتصاديّة على النظام العنصريّ. وصرّح بأنّ «الذين يستثمرون أموالهم في جنوب أفريقيا، عليهم أن يعلموا إلى أين تذهب أموالهم، وهم على علم تام بنتيجة هذه الاستثمارات، فشعب جنوب أفريقيا الأسود أوّل المتضرّرين منها. وإنّهم، بموقفهم هذا، يمدّون يد العون إلى أكثر النظم فسادًا منذ عصر النازيّة». وفي جميع لقاءاته وتصريحاته،

حاول توتو أن يتحلّى بالحرص والحذر، إذ كان معرَّضًا للسجن خمس سنوات لا أقلّ في حال اتّخاذ الحكومة العنصريّة ضدّه أيّ إجراء قانونيّ. ورغم ذلك، لم يشكّ لحظة واحدة في اقتراب الوقت الذي يسود فيه النصر والعدالة ضدّ الظلم والذلّ اللذين يعيشهما شعب جنوب أفريقيا. فكان يقول: «سوف نتحرّر بكلّ تأكيد. علينا أن نعرف فقط متى وكيف». وفي هذه المرّة أيضًا سُحب منه جواز سفره بعد رجوعه إلى البلاد.

وفي إجراء تصعيديّ، عمدت الحكومة إلى نزع مصداقيّة مجلس كنائس جنوب أفريقيا أمام الشعب. فعُيّنت لجنة ELOFF في عام ١٩٨١، كانت وظيفتها بحث الموقف الماليّ والسياسيّ واللاهوتيّ لمجلس كنائس جنوب أفريقيا.

وختمت هذه اللجنة عملها بعد عامين فقدَّمت تقريرها النهائيّ في نهاية فبراير ١٩٨٤، فأعلن وزير العدل أن «الكنائس الأعضاء في مجلس كنائس أفريقيا، عليها أن تُقرّر أنّه إذا ما واصل المجلس سياسة المواجهة مع الحكومة، فستتّخذ إجراءات مناسبة ضدّ هذه السياسة»؛ وأضاف أن «على هذه الكنائس أن تتساءل هل تريد أن تشكّل مجموعة ضغط سياسيّ، أم هي فعلًا أعضاء في كنيسة المسيح». وهكذا نصّبت الحكومة نفسها حَكَمًا على هويّة المسيحيّ.

لم تثْنِ هذه الصعوبات ديزموند توتو عن التزامه بقضايا وطنه، بل زادت من إصراره على الكفاح. فدعا المناضلين السود إلى توحيد جهودهم في مواجهة سياسة التفرقة العنصريّة.

ولم يخفِ سعادته بما اكتسبته النقابات السوداء من أهمّيّة. ولم تفُتْه

مناسبة إلّا وكان يتحدّث عن ضآلة شخصه ، سائلًا الحكومة : «لماذا تخافون منّي ؟ انني لا أملك حتّى الحق في إبداء رأيي في الانتخابات التي تجري في بلدي . فلماذا تخافون إنسانًا أسود صغير الحجم ، يحكي بعض الأقاصيص هنا وهناك حينما يسافر إلى الخارج ، خاصةً إذا كانت هذه القصص غير حقيقيّة كما تزعمون ؟» . وأضاف : «لا شكّ أنّه بإمكانكم حلّ مجلس كنائس جنوب أفريقيا ، وبإمكانكم إجباري على الصمت ؛ ولكنّ هذه الإجراءات لن تمنع الله من تحقيق إرادته . إنّ النصر أكيدٌ في هذه المعركة الحاليّة» .

جائزة نوبل السوداء

وفي أغسطس من عام ١٩٨٣، وُجِّهت الدعوة إلى ديزموند توتو لحضور اجتماع مجلس الكنائس العالميّ في ڤانكوڤر (Vancouver) بكندا . وبعد اشتراكه في الصلاة التي أُقيمت طوال الليل من أجل السلام ، عُقِد في اليوم التالي مؤتمر صحفي . ومرّة أخرى ألحّ على الطابع الثوريّ الذي يتضمّنه الكتاب المقدّس . ففسّر الكتاب المقدّس قائلًا : «لا البيولوجيا ولا لون البشرة هما اللذان يُحدّدان قيمة الإنسان ، بل إنّ ما يحدِّد هذه القيمة هو كون الإنسان مخلوقًا على صورة الله» . وخاطب الحاضرين قائلًا : «أنتم مُمثِّلون لله، إنّ الله لا ينتظر أن يصبح الإنسان صالحًا ، وهو لا يُحبّنا لأنّنا صالحون بل نحن صالحون لأنّه يُحبّنا» . هذه البُشرى، في رأي توتو ، هي التي تُبرِّر الكفاح اللاعنفيّ ، لأنّ البيض ليسوا شياطين تُزيِّنهم قرون بل هم أبناء الله. وأضاف قائلًا : «سواء أعجبكم هذا أو لا ، فأنتم إخوتنا وأخواتنا» . إن كفاح السود يجب أن يُتيح للبيض أن يُعيدوا

اكتشاف إنسانيّتهم. إن المسيحيّ قَبِل رسالة عجيبة، وهي رسالة المصالحة. ولكنّ ثمن هذه المصالحة باهظ. إنّ الأحداث الأخيرة في جنوب أفريقيا لا تعني فشل الكفاح من أجل التحرير، بل هي مُجرّد هدنة قبل النصر. فالمسألة لم تعد عصرنة التفرقة العنصريّة بل تفكيك الآلة التي تعمل على وجودها واستمرارها.

وحينما تساءل الحاضرون عمّا يستطيع مسيحيّو العالم أن يفعلوه للقضاء على التفرقة العنصريّة، أجاب ديزموند توتو: «تستطيعون أن تساعدوا الإخوة والأخوات في جنوب أفريقيا بصلواتكم التي سترتفع إلى الله وتقف كحائط نار يُبعد الشرّ عنهم. كما يمكن المسيحيّين أن يُوضحوا المعلومات الصحيحة عمّا يحدث من تجاوزات في جنوب أفريقيا، لتوعية الرأي العام بخطورة ما يحدث. وكذلك يمكنهم أن يؤثّروا في حكومات بلادهم كي لا تتعاطف مع هذا النظام العنصري. فعلى كلّ مسيحي أن يجد الوسائل لينعش هذا التضامن مع المقهورين، شرط ألّا يُستغلّ جنوب أفريقيا كستار لتغطية مشاكل الآخرين».

وفي عام ١٩٨٤، اضطُرّ ديزموند توتو أن يذهب إلى جنيف للمشاركة في أحد اجتماعات مجلس الكنائس العالمي بجواز سفر مكتوب فيه أمام خانة الجنسيّة: «جنسيّة من المستحيل تعريفها في الوقت الحاليّ». وكان على الرغم من ذلك مُقتنعًا أشدّ الاقتناع بصحّة مسعاه، فكان يقول: «نحن في طريقنا إلى النصر، وليس لدينا أدنى ذرّة من الشكّ في ذلك، وسوف نتذكّر في المستقبل جميع الذين عضدونا في مسيرة التحرير التي نخوضها. إنّنا نريد أن نتحرّر وننشد الحرّيّة لكل شخص في جنوب أفريقيا، أبيض كان أو أسود. نحن نسبّح الله العجيب في مشيئته، الله الذي

يُشاركنا في مِحنتنا . ونحن نناشد البيض في جنوب أفريقيا بأن ينضمّوا إلى جماعة الظافرين. إنّ الملكوت قريب وسيكتمل تحقيقه قريبًا !» .

ويضيف المجاهد الأسود قائلًا : «يجب ألّا نقع في فخ ما يُسمّى الإصلاح الدستوريّ ومعاهدات السلام التي ستُعقد مع موزمبيق وأنجولا» . ويحذّر : «إذا كان الغرب سينصرف عن ضغطه على جنوب أفريقيا ، فإنّ النتيجة ستؤول إلى كارثة ، وستغوص البلاد في بحار من الدماء» .

وحينما رأى ديزموند توتو الدول الغربيّة وبابا روما نفسه يحتفون بلقاء رئيس وزراء جنوب أفريقيا في يونيو ١٩٨٤، شعر بالأسى واعتبر ذلك «صفعة على وجوه ضحايا التفرقة العنصريّة بل على وجه كلّ من يناضل من أجل إزاحة الحكم العنصريّ بجميع الطرق السلميّة» .

وفي يوم ١٦ أكتوبر ١٩٨٤ ، وبعد عشرين عامًا على تسلُّم مارتن لوثر كِنْج جائزة نوبل للسلام بفضل كفاحه ضدّ التفرقة العنصريّة في الولايات المتحدة الأمريكيّة ، أُعلن حصول ديزموند توتو على جائزة نوبل للسلام . وكان ردّ فعله الأول : «إنّه إعلان سياسيّ عظيم» . وكان في غاية التأثُّر ، كما اعتبر هذه الجائزة جائزةً جماعيّة يرجع الفضل فيها الى عدد لا محدود من السود البسطاء ، رجالًا ونساءً ، من أبطال مجهولين . وحين احتفل به مجلس كنائس جنوب أفريقيا في ١٨ أكتوبر ١٩٨٤، وصف نفسه بأنّه «جنديّ صغير في وسط شعب يلهث في التراب . . .». وبعد هذا الحدث العظيم ، شرع في إعداد المباحثات بين الحكومة وممثّلين أصليّين من قادة الشعب الأسود ، مثل نيلسون مانديلا (Nelson Mandela).

وفي نوفمبر ١٩٨٤، عُيِّن ديزموند توتو السكرتير العام لمجلس كنائس

جنوب أفريقيا مطرانًا للأنجليكان في العاصمة جوهانسبرج.

هذا هو ديزموند توتو

الذي كُلِّل كفاحه بالنجاح

في عام ١٩٩٤

عام سقوط التفرقة العنصريّة في بلده.

نبذة تاريخيّة عن دولة جنوب أفريقيا

١٤٨٨ وصل البرتغاليّ بارثولوميو دياز (Bartholomeu Diaz) بحرًا على مسافة ٣٥٠ كم من «رأس الرجاء الصالح» (Cape Town) وقال إنَّه رأى على طول الشواطئ «برابرة لونهم فاتح يرعون أبـقــارهــم» .

١٤٩٧ وصل البرتغاليّ ڤاسكو دي غاما (Vasco de Gama) إلى رأس الرجاء الصالح ، وأقام علاقات سلميّة مع السكّان «الناما» (Namas).

١٦٥٢ وصل الهولنديّون الذين كان يُطلق عليهم اسم البوير (Boers) - أي الفلّاحون - وفيما بعد أُطلِق عليهم اسم الأفريكانرز (Afrikaners) - أي سكّان أفريقيا - بسُفُنهم تحت قيادة ڤان ريبيك (Van Riebeeck) إلى رأس الرجاء الصالح . وكانوا مفوّضين من حكومتهم لإقامة محطّة خاصّة بالسفن الهولنديّة المتّجهة نحو الهند ، وذلك لحساب «جمعيّة الهند الشرقيّة» .

كانت العلاقات الأولى مع السكّان الأصليّين سلميّة ، ولكن سرعان ما تطوّرت الأمور ، ودخل الهولنديّون في علاقات تجاريّة

تتعلّق بشراء الأغنام والأبقار، ونجح البوير في ضمّ بعض سكّان الناما كعبيد لهم.

١٦٥٧ سمح ڤان ريبيك لبعض أفراده باستيراد كمّيّة من العبيد من أنغولا. وانفصل عشرون فلّاحًا من البوير عن «شركة الهند الشرقيّة»، أي أصبحوا غير موظّفين في هذه الشركة وعملوا لحسابهم الشخصيّ، وقطعوا صلتهم بالمجموعة الهولنديّة الأصليّة، وانتزعوا أراضي بالقوّة من الناما، ولم يشتروا أو يؤجّروا هذه الأرض مُعتبرينها «أَراضي غير خاضعة لأحد».

١٦٨٨ وصل مائتان من الكالڤينيّين الفرنسيّين المطرودين بسبب إلغاء مرسوم نانْت (L'Edit de Nantes)[1].

١٧٩٥ بينما استطاع المستعمرون الأوروبيّون (الهولنديّون والألمان والقادمون من شمال غرب أوروبا وفرنسا) إقامة جمهوريّة حول رأس الرجاء الصالح، نزل الإنجليز على الشواطئ خوفًا من أن تكون الثورة الفرنسيّة قد أخذت المبادرة في هذه المنطقة لقطع طريق الهند عليهم.

١٨٠٦ احتلّ الإنجليز رأس الرجاء الصالح احتلالًا نهائيًّا.

---

(١) مرسوم نانت: مرسوم وقّعه هنري الرابع يوم ١٥٩٨/٤/١٣. وينصّ على المصالحة بين الكنائس الكاثوليكيّة والكنائس الإصلاحيّة في فرنسا، علمًا بأنّ الكالڤينيّين كانوا من الطوائف الإصلاحيّة الأساسيّة.

١٨١٤ وُقِّعت المعاهدة الإنجليزيّة الهولنديّة التي تمنح انجلترا حقّ السيادة على المنطقة، وفي الوقت نفسه حارب البوير حربهم الرابعة القبائل السوداء في الشمال.

١٨٢١ وصل أوائل المهاجرين الحقيقيّين من بريطانيا وتوغّلوا حتّى جراهام تاون (Grahamstown).

١٨٢٤ استوطن بعض الإنجليز إقليم ناتال (Natal).

١٨٣٣ تمّ إلغاء العبوديّة.

١٨٣٥ - ١٨٥٢ النزوح العظيم: ترك عشرة آلاف من سكّان البوير منطقة رأس الرجاء الصالح ليتحرّروا من السلطة البريطانيّة، وهناك خمسة أسباب رئيسيّة تُفسّر نزوحهم:

١. التغييرات التي أدخلتها الإدارة البريطانيّة على مصلحة الأحوال الشخصيّة الخاصة «بالملوّنين».

٢. الإصلاحات الخاصّة بالعدالة.

٣. النشاط التبشيري البروتستانتي الذي دعا إلى إلغاء العبوديّة.

٤. القوانين الجديدة الخاصّة بتملّك الأراضي.

٥. دخول المستعمرين البريطانيّين.

وعليه قام البوير بنقل متعلّقاتهم الشخصيّة على عربات تجرّها الثيران ليتوغّلوا في داخل البلاد، حاملين معهم أطفالهم ونساءهم والكتب المقدّسة في أيديهم والبنادق على أكتافهم.

وقد اتّسمت هذه الفترة بالحروب بين البوير والأنجليز، وبين قبائل البانتو (Bantus) والبوير، وبين البانتو والإنجليز، للسيطرة على الأراضي والقطعان بعد أن انتشرت السرقات بينهم.

١٨٥٢ – ١٨٥٤ استقلّت جمهوريّة جنوب أفريقيا المكوّنة من إقليم الترنسفال (Transvaal) الحاليّ ودولة أورانج (Orange) الحرّة، واعترف الإنجليز بها. ومنذ بداية هذا التاريخ حاول البريطانيّون والأفريكانرز بسط نفوذهم على الأراضي المجاورة، وقاموا في سبيل ذلك باتّصالات واسعة مع رؤساء القبائل الأفريقيّة.

١٨٦٠ اتّسعت المساحات المزروعة بقصب السكّر على طول ساحل المحيط الهنديّ خاصّة في إقليم الناتال. وأدّت قلّة الأيدي العاملة في المنطقة بالمستعمرين البيض في جنوب أفريقيا إلى استجلاب عُمّال من الهند للعمل في مزارعهم.

١٨٦٧ تمّ اكتشاف الماس في مقاطعة كِيمْبرْلي (Kemberley)، وحتّى هذا التاريخ كانت جنوب أفريقيا دولة فقيرة تعتمد في مواردها على الزراعة والرعي. ولكنّ هذا الاكتشاف فتح الأبواب على مصراعيها للتنقيب عن المعادن، ودخلت البلاد في نطاق التجارة العالميّة والمشروعات الرأسماليّة، وفُتحت شهيّة رجال الأعمال في أوروبا على الاستثمار فيها.

١٨٨٦ اكتُشِف الذهب في مقاطعة ويتْوا تِرشْتاند (Witwa Terstand).

١٨٩٣ وصل «غاندي» - المحامي ذو الأربع والعشرين ربيعًا - إلى جنوب أفريقيا ، وأثّرت أفكاره عن المقاومة اللاعنفيّة في الزعماء الأفارقة ، خاصّة ألبِرت لوتولي (Albert Luthuli).

١٨٩٩ - ١٩٠٢ قامت حرب البوير : وفيها حارب الأفريكانرز الإنجليز دفاعًا عن وطنهم الجديد وعن أراضيهم وأيديولوجيّتهم المبنيّة على الاستعباد ؛ وأمّا الإنجليز فكان غرضهم من الحرب وضعَ اليد على المناجم . وانتصر الإنجليز في النهاية مُجبرين البوير على أن يصيروا رعايا بريطانيّين . وأقامت انجلترا في الترنسڤال ودولة أورانج الحرّة حكومتين إنجليزيّتين ، في حين خضع الأفريكانرز للضرائب الباهظة وتفاقمت ديونهم بسبب الحروب .

١٩٠٢ - ١٩١٤ شهدت هذه الفترة صحوة الأفريكانرز الثقافيّة والسياسيّة : فعكف البوير بأقصى جهدهم على إعادة بناء دولتيهم اللتين خُرِّبتا ، وكان يساندهم في ذلك تفوُّقهم العدديّ على الإنجليز .

١٩١٠ تكوّنت دول اتّحاد جنوب أفريقيا التي تمتّعت باستقلال فعليّ في إطار الكومنويلث البريطانيّ .

ضمّ هذا الاتّحاد مستعمرة كيپ تاون وإقليم الناتال ودولتي الترنسڤال والأورانج بالإضافة إلى الدول الثلاث التابعة مباشرة للتاج البريطانيّ : بِتشوانالاند (Bechuanaland) - دولة بُتسوانا الحاليّة ، وباسوتولاند (Basoutoland) - دولة لِيسوتُو الحاليّة ، وسوازيلاند (Swaziland).

١٩١٢ تأسّس حزب «المؤتمر الوطني الأفريقيّ» أساسًا من قبائل البانتو التي اتّحدت أمام مطالب البيض المُبالغ فيها. سيلعب هذا الحزب دورًا هامًّا للغاية لدى الأفارقة، وسيعمل على وحدة القبائل التي ظهرت ظهورًا واضحًا في مظاهرات الاحتجاج السلميّة. وانطلقت أهمّ هذه المظاهرات في أيّام رئاسة ألبِرت لوتولي. وكان حزب المؤتمر الوطني الأفريقيّ قد استلهم فكره من غاندي الذي بدأ تطبيق أفكاره عن اللاعُنف في جنوب أفريقيا قبل رجوعه إلى الهند. وفي العام نفسه، صدر قانون باسم Native Land Act يُحرِّم على الأفارقة امتلاك الأراضي الخارجة عن الرقعة المحدّدة لهم.

١٩١٣ صدر القانون الخاصّ بالأراضي الذي يُحرِّم على الأفارقة امتلاك أراضٍ تزيد على ٧٪ من رقعة البلاد الكلّيّة. وجاء هذا القانون (National Land Act) بصفة مؤقتة.

١٩١٤ دخل الأفريكانرز الحرب العالمية الأولى إلى جانب بريطانيا.

١٩١٨ فرض اتحاد جنوب افريقيا الانتداب على جنوب غرب افريقيا

١٩١٨ – ١٩٣٩ شرعت جنوب أفريقيا بشكل حثيث في سياسة الفصل العنصريّ (Apartheid)، وتصاعدت روح الأفريكانرز الوطنيّة (Native Affairs Act)، واشتدّت قبضة القوانين العنصريّة وقانون وضع اليد على الأراضي راسمةً بذلك بداية «التنمية المنـفـصـلـة».

١٩٣٦ ظهر قانون جديد بخصوص الأراضي (National Trust and Land Act) يرفع نسبة امتلاك السود إلى ١٣٪ من المساحة الكلّيّة. وهذه الزيادة هي إجراء للتخفيف من وقع الإجراء الأكثر تعسُّفًا الذي تمّ ضدّ السود وهو منعهم من الاشتراك في انتخابات المجلس التشريعيّ.

١٩٤٥ أضرب ٧٠،٠٠٠ من عمّال المناجم السود، ممّا أدّى إلى اغلاق العديد من المناجم. واستطاع البوليس فضّ الإضراب بعد أن قتل ١٢ عاملًا وجرح ١،٢٠٠ آخرين. وقبض على العديد من قادة النقابات.

١٩٤٨ فاز في الانتخابات الأفريكانرز حزب الوطني الذي كان يقوده الدكتور دانيال مالان (Dr. Daniel F. Malan). وتمحورت حملته الانتخابيّة حول سياسة الفصل العنصريّ. وظهر العديد من القوانين العنصريّة التي يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أنواع: الأولى قهريّة تمنح البوليس سلطات واسعة وتؤمّن سيطرة البيض السياسيّة، والثانية قوانين خاصّة تفصل بين الأعراق والأجناس فصلًا مادّيًّا ومعنويًّا. والثالثة تهدف إلى تنمية الجماعات غير الأوروبيّة بحسب القوانين العنصريّة.

١٩٤٩ تبنّي حزب المؤتمر الوطني الأفريقيّ برنامجًا جماهيريًّا للتصدّي لهذه القوانين، ثمّ صدر قانون يُحرّم الزواج المختلط والمعاشرة الجنسيّة بين البيض والسود.

١٩٥٠ صدر قانون مناطق الجماعات (Group Area Act).

١٩٥١ صدر قانون تخصيص مَرافق للسود، وقانون سلطات البانتو.

١٩٥٢ اندلعت المظاهرات بشكل دمويّ، وأصبح لوتولي رئيسًا رسميًّا لحزب المؤتمر الوطني الأفريقي كما أصبح زعيمًا بلا منازع. وقد واصل الكفاح وحصل على جائزة نوبل للسلام عام ١٩٦٠، ومات مُحدّد الإقامة عام ١٩٦٧، بعد أن أصبح رمزًا وطنيًّا للمقاومة الأفريقيّة للعنصريّة.

١٩٥٣ صدر قانون تعليم البانتو وقانون الأمن العام، وأصبح الفصل العنصريّ شرطًا للاعتراف بالنقابات. وتمّ استبعاد السود من حقّ المشاركة في الأنشطة النقابيّة، ومنذ ذلك التاريخ أصبحت إضرابات السود غير قانونيّة تستوجب العقاب.

١٩٥٥ تمّ تأسيس أوّل نقابة غير عنصريّة اسمها (South African Congress of Trade Unions).

١٩٥٦ نظّمت ٢٠،٠٠٠ امرأة احتجاجًا على تصاريح المرور التي فُرِضت على النساء أيضًا، فتوجّهن إلى المكاتب الحكوميّة في پـريـتـوريـا.

١٩٥٤ – توالى على رئاسة الحكومة العنصريّة بعد الدكتور مالان،
١٩٦٦ سترايدام ١٩٥٤ (J. G. Strijdam) ثمّ فرڤورد ١٩٥٨ .H

(F. Verword ثمّ فورستر ١٩٦٦ (B. J. Vorster)، وجميعهم شاركوا في تثبيت دعائم الفصل العنصريّ.

١٩٥٩ تمّ إنشاء حزب «المؤتمر الأفريقيّ الذي تزعّمه الأسود روبرت سوبوكوي (Robert Sobukwe) وهو ذو اتّجاه وطني أقلّ انفتاحًا على الأعراق الأخرى من حزب المؤتمر الوطنيّ الأفريقيّ.

١٩٦٠ حدثت مذبحة في شارپ ڤيل (Sharpeville) مات فيها ٦٩ شخصًا أثناء مظاهرة سلميّة ضدّ قانون تصاريح المرور. وقد أعلنت الأمم المتّحددة يوم ٢١ مارس يومًا عالميًّا لمناهضة التفرقة العنصريّة. وفي هذا العام أصبح الموتمر الوطنيّ الأفريقيّ، وكذلك حزب المؤتمر الأفريقيّ، محظورَين وغير شرعيَّيْن، وتمّ إلقاء القبض على ٢،٢٠٠ شخصًا وسُجنوا بموجب قانون الـطـوارئ.

١٩٦١ خرج اتّحاد جنوب أفريقيا من الكومنويلث بسبب سياسات جنوب أفريقيا العُنصريّة. وتمّ اختيار فرڤورد رئيسًا للحكومة، وهو الذي أضفى على سياسة الفصل العنصريّ شكلها النهائيّ.

١٩٦٢ أنزلت الأمم المتّحدة عقوبات اقتصاديّة ضدّ جنوب أفريقيا بسبب سياسة الفصل العنصريّ.

١٩٦٣ صدر قرار من مجلس الأمن يطالب جميع دول العالم بعدم بيع او تصدير سلاح أو ذخيرة أو أيّة أدوات ذات طبيعة عسكريّة إلى جنوب أفريقيا.

١٩٦٤ ألغت الجمعيّة العامّة للأمم المتّحدة انتداب جنوب أفريقيا على ناميبيا، وقُبض على نيلسون مانديلا - أحد زعماء حزب المؤتمر الوطني الأفريقيّ - وحُكم عليه بالسجن مدى الحياة بتهمة الخيانة العظمى.

١٩٦٦ انطلقت العمليّات المشتركة بين المؤتمر الوطني الأفريقيّ وحركة التحرّر الوطني في زيمبابوي (Zimbabwe) ضدّ حكومة سميث (Smith).

١٩٦٩ تكوّنت منظّمة الطلبة في جنوب أفريقيا SASO: South African Student Organization.

١٨٧٦ اندلعت مظاهرات عارمة في سويتو قام بها طلبة المدارس والجامعات الأفارقة ضدّ قرار الحكومة بفرض لغة الأفريكانرز لغة ثانية للتعليم إلى جانب اللغة الإنجليزيّة. وتسبَّب قمع هذه المظاهرات في مقتل ٦٠٠ فرد على حسب تقدير المصادر الرسميّة.

١٩٧٧ مات الزعيم الأسود ستيف بيكو في اثناء احتجازه عن يد الشرطة، وتمّ إلغاء شرعيّة ١٨ منظّمة سوداء كانت تنادي بالوعي للقوميّة السوداء.

١٩٧٨ استقال فورستر من رئاسة الوزارة وحلّ محلّه بوتا (P. W. Botha).

١٩٧٩ أصدرت الجمعيّة العامّة للأمم المتّحدة ١٥ قرارًا تدين فيها السياسة العنصريّة في جنوب أفريقيا. وطلبت الجمعيّة العامّة من الحكومات المعنيّة اتّخاذ اجراءات لوضع حدود للتعاون الاقتصاديّ والعسكريّ والنوويّ مع حكومة پريتوريا. كما طالبت بعدم الاستثمار في هذا البلد، وفرضت حظرًا على تصدير النفط إليها. كما طالبت الجمعيّة العامّة مجلس الأمن بتبنّي عقوبات ضدّ حكومة پريتوريا، ووجّهت الجمعيّة العامّة دعوة إلى جميع حكومات العالم لمنع الشركات المتعدّدة الجنسيّات والبنوك من التعاون مع جنوب أفريقيا. وفي النهاية طالبت البنك الدوليّ والمؤسّسات الدوليّة الأخرى بعدم منح قروض لجنوب أفريقيا.

في هذه السنة أيضًا حصل السود على حقّ الاشتراك في الأنشطة النقابيّة، وكانت هذه الإجراءات بادئ ما عُرف بالاصلاحات الدستوريّة؛ ولكن ظلّ التمييز العنصريّ على مستوى العمل دون تغيير يُذكر، كما تصاعدت عمليّات قهر السود وخاصّة القادة النقابيّين منهم.

١٩٨٠ قامت حملة تدعو الى إطلاق سراح زعيم المؤتمر الوطني الأفريقيّ نيلسون مانديلا. وقامت حركات مقاطعة شاملة على مستوى البلاد مُوجّهة ضدّ نظام التعليم العنصريّ. وقام حزب المؤتمر الوطنيّ الأفريقيّ بأعمال عنف.

١٩٨١ في أبريل، نظّم بوتا انتخابات مبكّرة، وفقد حزبُه الوطنيّ مقاعد كثيرة لصالح اليمين المتطرّف، الذي كان يعارض الإصلاحات.

١٩٨٢ على الرغم من انسحاب أكثر من ١٨ نائبًا من حزب بوتا ليكوّنوا حزبًا محافظًا، نجح بوتا في إعلان خطّة لإجراء تعديلات هامّة على الدستور، شملت مجلسَين استشاريَّين في إطار البرلمان: مجلس «للملوَّنين» (وهم نتاج الزواجات المختلطة بين الأعراق)، يُسمّى مجلس المُمَثّلين (House of Representatives) وآخر للهنود يُسمّى مجلس النوّاب (House of Delegates) كما اقترح توسيع سلطات مجلس الرئاسة (حيث سيُمثّل الملوَّنون والهنود)، وقام بإلغاء منصب رئيس الحكومة بحيث يصبح رئيس البلاد هو رئيس السلطة التنفيذيّة.

١٩٨٣ تكوّنت «الجبهة الديمقراطيّة المتّحدة» التي تجمع السود وذوي الجذور العرقيّة المختلطة والهنود، قد ضمّت ٦٠٠ منظّمة. وفي نوفمبر ١٩٨٣ وافق ٦٦٪ من الناخبين البيض على الدستور الجديد في استفتاء عامّ.

١٩٨٤ عُقِد اتّفاق بجنوب أفريقيا وأنغولا على وقف إطلاق النار وانسحاب قوات جنوب أفريقيا من أنغولا. كما عُقدت معاهدة «عدم اعتداء واحترام للجيرة» بين موزمبيق وجنوب أفريقيا. اشترك ٣٠٪ فقط من ذوي الأعراق المختلطة في انتخاب مجلس النوّاب الخاص بهم (٨٥ نائبًا)، واشترك ٢٠٪ فقط من الهنود

في انتخاب ممثّليهم في المجلس الخاص بهم (٤٥ نائبًا)[٢]، وقام السود بمظاهرات قَمَعتها الحكومة بكلّ عنف.

١٩٨٥ ألغي قانون حظر الزواج المختلط في بوادر تحوّل في سياسة الدولة.

١٩٨٦ بدأ الاتّجاه نحو إلغاء الفصل العنصريّ: القبول بجنسيّة واحدة لجميع سكّان جنوب أفريقيا. وإعلان الحرّيّة والمساواة والمشاركة للجميع وإن كان على مستوى نظري.

١٩٨٩ سقطت الشيوعيّة وما تبع ذلك من إضعاف الأهمّيّة الاستراتيجيّة لوجود حكومة بيضاء في جنوب أفريقيا في مواجهة النفوذ الشيوعيّ في موزمبيق وأنغولا، ممّا أدّى بالمعسكر الغربي إلى زيادة الضغط على البيض للقيام بإصلاحات ديمقراطيّة. خلف دي كليرك (De Klerk) بوتا في رئاسة جنوب افريقيا في شهر سبتمبر.

١٩٩١ أُطلق سراح نيلسون مانديلا وأُعلن إنهاء سياسة الفصل العنصريّ ورُفع الحظر عن حزب المؤتمر الوطني الأفريقيّ والمؤتمر الأفريقي وكافة القوى السياسيّة المحظورة. وتمّ لقاء بين الحكومة والمؤتمر الوطني واتُفق على خطّة تعاون للتحوّل السلميّ.

---

(٢) تصويت هذه المجالس استشاريّ فقط، أمّا السود فليس لهم مُمثّلون.

١٩٩٢ أيّد البيض في جنوب أفريقيا بأغلبية عظمى (حوالى ٧٠٪) إصلاحات الرئيس دي كليرك السياسيّة التي تسعى إلى تحويل النظام العنصريّ إلى مجتمع ديمقراطيّ يتمتّع فيه الأفارقة والبيض والملوّنون والهنود بالمساواة في الحقوق والواجبات.

بعد ظهور نتائج الاستفتاء عن جميع طوائف السكّان مُمثّلة بلجنة وضع الدستور (CODESA) بإعداد دستور ديمقراطيّ لجنوب أفريقيا الجديدة،

يقوم على مبدأ تقاسم السلطات على المستوى الفيدراليّ ومستوى الأقاليم بين جميع الأجناس والأحزاب ولا سيّما السود والأفريكانرز وقبائل الزولو التي تسكن إقليم الناتال.

حدثت مصادمات بين حزب المؤتمر الأفريقيّ ومنظّمة إنكاثا (INKATHA) في شهر يونيو.

بدأت جنوب أفرقيا تستعيد مكانتها في بعض المنظّمات الدوليّة واللقاءات الرياضيّة والاجتماعيّة، وكانت قد أُبعدت عنها بسبب سياستها العنصريّة.

١٩٩٤ أُجريت أوّل انتخابات ديمقراطيّة تعدّديّة، وأصبح نيلسون مانديلا أوّل رئيس أسود على جنوب أفريقيا، وأصبح دي كليرك نائبًا له، في نهاية حاسمة لسياسة التفرقة العُنصريّة وقد استمرّت ما يقرب من قرن.

الباب الثاني

ديزموند توتو
واللاهوت الأسود

الفصل الثالث

اللاهوت الخاص بالسُّود*

صومعة اللاهوتيّين

كثيرًا ما يسود انطباع عامّ بأنّ علم اللاهوت لا يخرج إلّا من مكتب أحد أساتذة اللاهوت ، ولا يتحدّث عنه أحدٌ إلّا في مُدرّجات الجامعات أو المعاهد الدينيّة حيث يخطب الأستاذ في الطلبة . وهم يقطفون اللآلئ المتساقطة من فم المعلّم الأوحد ، ليسجّلوها بكلّ عناية في مفكّراتهم . وفي جميع الأحوال ، جرى العرف على أنّ اللاهوت حِكرٌ على المتخصّصين ، لأنّه معقّد الثنايا ، لا يخوض غماره إلّا من أُوتوا هذا العلم . وأمّا الآخرون فما عليهم إلّا السمع والطاعة وعدم الخوض في ما لا يعنيهم .

ولا شكّ في أنّ التقدّم الهائل الذي طرأ على مختلف العلوم – بما فيها العلوم الإنسانيّة – والتعقيدات الكثيرة التي غلّفت الحياة الإنسانيّة من جميع نواحيها في الفترة الأخيرة ، لا شكّ في أنّ كل هذا أجبر السلطات الكنسيّة على أن تُحيط نفسها ببعض المتخصّصين في فروع العلم المختلفة ، والذين هم

(*) ألقى ديزموند توتو هذه المحاضرة عام ١٩٧٣ في ڤوپيرتال (Wuppertal) بألمانيا الغربيّة لمناسبة عقد حلقة دراسيّة للكنيسة الإنجيليّة . وقد نُشرَت باللغة الفرنسيّة في كتاب **ديزموند توتو ، لي الحق بأن أوجد** ، لوزان – ١٩٨٢.

في الوقت نفسه خُبراء في معرفة المبادئ اللاهوتيّة الثابتة النابعة من الإيمان المسيحيّ . والهدف من ذلك هو أن يستطيع هؤلاء الناس إعادة صياغة هذه الحقائق اللاهوتيّة من مُنطلَق الاكتشافات الحديثة التي لا يرقى إليها الشكّ ، في سبيل عرض رؤية جديدة تتواءم مع معطيات العصر بدون أن تهمل ثوابت الإيمان المسيحيّ .

يسعى هؤلاء المتخصّصون إذا إلى مساعدةالمؤمنين على تطبيق هذه الحقائق في حياتهم اليوميّة ، وإلى أن يجعلوها تتغلغل في طريقة حياتهم نفسها . ومن هذه الزاوية ، فإنّ أحدًا لن يعترض على لجوء السلطات الكنسيّة إلى هؤلاء المتخصّصين الذين تستعين بهم في تسيير عملها .

وبالرغم من أهمّيّة المتخصّصين لتسيير أمور الكنيسة ، إلّا أنّ التململ والضيق يطفوان على السطح حينما تصبح لغتهم اللاهوتيّة مُستعصيةً على الفهم إلّا للقلّة التي تملك مفتاح شفرتها ، فتصبح غير فعّالة لمن تتوجّه إليهم من عامّة الناس ؛ فهم لا يفهمون هذه اللغة رغم أنّها تعبّر عن حاجاتهم وتبغي أن ترشدهم . وفي هذه الحالة ، فإنّ انصراف عامّة الناس عن اللاهوت واللاهوتيّين بسبب لغتهم المُشَفَّرة أمر مفهوم ، فيصدق القول أنّ للحديث اللاهوتيّ لُغته الخاصّة ولا تأثير له في حياة المؤمنين العامّة. ويمكننا أن نوافق على الرأي القائل : «إنّ الحديث اللاهوتيّ قضيّة هامّة لا يجوز أن نتركها للّاهوتيّين وحدهم» ، خاصّةً وأنّ هناك بعض اللاهوتيّين الذين لا يرون غضاضة في أن يصبح الحديث اللاهوتيّ حِكرًا عليهم وسرًّا عسيرًا على غيرهم .

وفي معاهدنا الدينيّة وجامعاتنا ، يعتاد الطلّاب على أنّ الدروس اللاهوتيّة لا تقتصر فقط على اجترار ما يلقّنه لهم أساتذتهم ، ويظنّون أنّ

الطالب المثاليّ هو صاحب القدرة على احتواء أكبر قدر من المعلومات في ذاكرته؛ وتتجلّى هذه القدرة في استظهاره واسترجاعه ما قاله عظماء اللاهوتيّين في الماضي والحاضر. وإذا أراد الطالب أن ينجح في الامتحان فما عليه إلّا أن يرطُن بالكلمات والتعبيرات التي نطق بها أساتذته؛ ومَن يحصل على أعلى الدرجات هو ذلك الذي كثرت في ورقة إجابته عبارات الاستشهاد بنصوص كبار الكتّاب.

وإن كنّا نوجّه النقد إلى هذا الأسلوب في درس اللاهوت، فهذا لا يعني أن نُهمل الاستشهاد بنصوس العلماء. فالادّعاء بأن طالب اللاهوت يمكنه الاستغناء تمامًا عمّن سبقوه في هذا العلم هو تطرّف في الاعتداد بالنفس غير محمود هو أيضًا، ويمكن مقارنته بأديب يأبى على نفسه أن يكون شكسبير أستاذه. ولكن ما نرفضه في طريقة درس اللاهوت هو الانطباع الذي يعطيه أساتذة اللاهوت في معاهدنا. وفحوى هذا الانطباع أنّه لا يوجد أي نوع آخر من الحديث اللاهوتيّ إلّا ما يمكن أن نطلق عليه تسمية «لاهوت الاستشهاد بالنصوص». ولا تؤخذ في الاعتبار جميع الاعتبارات الشخصيّة التي يعيشها طلبة جامعاتنا ومعاهدنا الدينيّة، بالرغم من أنّ هذه الاختبارات الشخصيّة الحياتيّة يجب أن تدخل كعناصر جديدة قيّمة تُضيف إلى ما يدرسه بُعدًا مُعاشًا وتُجبر الدارس على التفكير في حياته تفكيرًا لاهوتيًا.

كيف لا نندهش ونحن نرى الهُوَّة تتعمّق، يومًا بعد يومٍ، بين ما يُدرَّس في قاعات المحاضرات وما يدور في الشارع ويمسّ حياة الناس مباشرةً؟ فحياة الناس هي المادّة الأوّليّة الحقيقيّة التي يجب أن ينطلق منها اللاهوتيّ.

ثمّ كيف لا نندهش حين نرى كثيرين من طلبة اللاهوت وقد خابت آمالهم لأنّ المواد التي يتلقّونها في المحاضرات لا علاقة لها بتاتًا بما يعيشونه في واقعهم وما سيقومون به من عمل في مستقبلهم؟ كيف لا نندهش ممّا سيواجهونه من صعوبات حين يحاولون إقامة علاقة بين الحقائق الإيمانيّة العميقة من جهة، وظروف الحياة المتغيِّرة والسريعة التي يحياها أبناء رعيّتهم من جهة أخرى؟

وأخيرًا، كيف لا نندهش من العدد الكبير، والذي يتضخّم يومًا بعد يومٍ، من هؤلاء الكهنة الذين ما عادوا يحتملون أن يجدوا أنفسهم عاجزين عن تبرير وجودِهم، فيتركون الخدمة بل الكنيسة نفسها؟

بالتأكيد لديهم شهادة بتقدير «جيّد» في علم اللاهوت، ولكنّ هذه الشهادة لا تُسعفهم في مواجهة متطلّبات الحياة اليوميّة مواجهةً لاهوتيّة مناسبة. لقد درسوا علم اللاهوت وقرأوا لأئمّته ولكنّهم لم يتعلّموا كيفيّة استخدامه!

علم لاهوت من أجل الإنسان

ينشأ علم اللاهوت المسيحيّ حين يبدأ التفكير في الخبرة الحيّة التي تعيشها جماعة مسيحيّة معيّنة، وحين يكون هذا التفكير في الخبرة مرتبطًا بالبحث عن علاقتها بالوحي الذي أعلنه الله عن نفسه والذي اعترفت به الكنيسة في مُجملها؛ فإن حدث ذلك، فإنّ العمل اللاهوتيّ ينحو إلى إضفاء معنى على هذه الخبرة، بحيثُ يؤثِّر هذا المعنى في سلوك الجماعة وطريقة حياتها، وبحيث تُجاهد الجماعة المسيحيّة للمطابقة التدريجيّة بين أفعالها وما تعتبره تعبيرًا عن إرادة الله كما فهمتها في فترة من تاريخها.

ومن الواضح أن علم اللاهوت هو نشاط إنسانيّ مشروط بالمكان والزمان اللذين يولد فيهما، كما هو مشروط بالحدود وبسوء الفهم الذي يمكن أن يؤثّر في الناس الذين يقرأون أو يفسّرون هذا العلم اللاهوتيّ.

وينتج عن هذه الظروف ثلاث نتائج:

١. أنّ من طبيعة كلّ لاهوت يرتبط بالواقع المُعاش أن يكون لاهوتًا يُعبّر عن واقع مُعيّن وخاصّ، لأنّه ينبع من أسئلة جماعة محدّدة وظروف مُعيّنة خاصّة بهذه الجماعة. وبالتالي فهو محدود بهذه الجماعة وبالظروف التي تعيشها؟ أي أنّ هذا اللاهوت ينتمي بالضرورة إلى جماعة مسيحيّة في مكان وزمان مُعيّنين. ومن المنطقي إذًا ألّا يدّعي – علىالأقل في البداية – أن له طابعًا شموليًّا وعالميًّا؛ هذا وقد يُعترَف بهذا الطابع الشموليّ العالميّ في ما بعد. وهذا أمر في غاية الأهمّيّة، فعلم اللاهوت في البداية يجب أن يكون ذا طابع «مُناسب». وهذا الجزء الأكبر من علم لاهوت العهد الجديد.

ويمكن شرح ما سبق قوله انطلاقًا من قراءة العهد الجديد؛ فنصوص العهد الجديد تعكس الظروف المحدّدة التي عاش فيها الرسل. فعلى سبيل المثال، كان المسيحيّون في تجاربهم الأولى يعانون دائمًا من الألم إذا كانت الكنيسة تتحدّث عن المسيح الجالس عن يمين الآب في السماء والذي قهر الموت. هذه الظروف جعلت القدّيس يوحنا يكتب سفر الرؤيا؛ فسفر الرؤيا هو تعبير عن الإيمان القويّ بانتصار الله على الألم رغم وجود الجماعة المسيحيّة في قلب هذا الألم. وما ينطبق على قضيّة الألم ينطبق كذلك على قضيّة «خِتان الأمم»؛ فحين كتب القدّيس بولس إلى أهل غلاطية، لم

يكتب لتمضية الوقت أو للتسلية، أو لأنّ الورق والقلم كانا متوفِّرَين، بل لأنّ قضيّة هامّة طُرحت على الجماعة المسيحيّة في غلاطية: هل يجب أن يصبح الأمميّ يهوديًّا أوّلًا لكي يصير مسيحيًّا، أي هل عليه أن يُختن كما كانت، في ذلك الوقت، عادة اليهود المُرتدِّين من اليهوديّة إلى المسيحيّة؟ كذلك فعل كاتب الرسالة إلى العبرانيّين، فإنّه كان يريد أن يطمئن المسيحيّين المُتهوِّدين وقد فقدوا مميّزات كثيرة وشرعوا يتساءلون عن مدى تفوّق الدين المسيحيّ على الدين اليهوديّ.

يمكن سرد أمثلة كثيرة من الكتاب المقدس تُبيِّن أنّ نصوصه كانت مُتعلِّقة بمواقف محدّدة وتساؤلات نابعة من هذه المواقف. وبالإضافة إلى ذلك، فإنّ الكتاب المقدّس يشهد بوجود تعدّديّة لاهوتيّة في طيّاته؛ فنحن لا نفهم أسرار الإيمان بالطريقة نفسها ولا نُعبّر عن هذا الإيمان على مرّ الزمن بالأسلوب نفسه من دون تغيير؛ فلا بُد من تعدُّديّة غنيّة في الممارسات اللاهوتيّة. ويُمكن للّاهوت الأسود إذًا أن يدّعي أنّه عنصر شرعيّ من تعدُّد عناصر اللاهوت المسيحيّ في الكنيسة.

٢. لا وجود للاهوت مُطلق ونهائيّ. فليس الموقف الحياتيّ في كلّ جماعة مسيحيّة موقفًا ثابتًا جامدًا. فمنهل المعارف الجديدة المحيطة بالجماعة مستمرّ ويؤدّي إلى معارف جديدة. وكلّ لاهوت حيّ يعي أنّه مُعرّض باستمرار لأن يعفو عليه الزمن. والخلاصة أنّ الإنسان لم يُخلق لعلم اللاهوت بل علم اللاهوت أبدعه الإنسان. لأنّ اللاهوت – الذي قد يُجيب إجابة شافية عن الأسئلة الكثيرة الشائكة والجوهريّة المطروحة اليوم – لا يمكنه أن يكون صالحًا، فيُجيب عن تساؤلات الغد إجابات اليوم. لأنّه في غالب الأمر، ستختلف الأسئلة المطروحة حينذاك عنها اليوم. فليس علم اللاهوت غاية في حدّ ذاته ولكنّه وسيلة لأمر أسمى منه...

وحين حاولت الكنيسة أن تضفي على بعض المقولات اللاهوتيّة قيمةً مطلقة، تورّطت في مشاكل لا حصر لها. وهذا يدعونا لأن لا نخلط بين القيم الواقعيّة والحقائق المطلقة في كلّ حديث لاهوتيّ. فالحقائق هذه يجب أن تظلّ موجودة في جميع الأحاديث اللاهوتيّة الأخرى. لأنّ علم اللاهوت، شأنه شأن جميع الأنشطة البشريّة، لا يبدأ كلّ مرّة من نقطة الصفر، كأن يحاول إنسان اليوم إعادة اكتشاف الكهرباء.

٣. على كلّ صياغة لاهوتيّة تحاول أن تلبّي متطلبات موقف آنيّ، أن تعترف – بصدر رحب – أنّها محدودة في نطاق موضوعها. فإن اعترفت بهذه الحقيقة، يمكنها أن تتحدّث من منطلق هذا الواقع المعيّن. وفي الوقت نفسه، عليها أن تدرك أنّها لن تُفهم حقّ الفهم من اللاهوتيّين الآخرين. فهم أيضًا يمكنهم أن يفهموا الله فهمًا مختلفًا، كما يمكنهم أن يخطئوا في فهمهم ولكن في إطار ظروفهم الشخصيّة الخاصّة بهم.

إن النصوص الكتابيّة مِثل ١ ملوك ١٨/١٧ – ٤٠ ومتّى ٤/٥ – ٧ تساعدنا على فهم بعض العناصر التي تحدّثنا عنها سابقًا. فكان للنبيّ إيليّا فهمٌ معيّنٌ لله، وكان لديه لاهوت خاص به، وإله إيليّا ألزمه بالقضاء على أنبياء البعل. وهذا يُبيّن لنا انّ إيليّا كان ابن زمانه، فكان لديه فهم معيّن بأنّ يهوه هو إله واحد، ولا يمكن أن يكون إله غيره في قلب اليهوديّة. ولكن إيليّا خضع أيضًا لتصوّرات خاطئة كانت موجودة في عصره، كما خضع لتصوّرات خاطئة عن نفسه. فقد كان يفهم الله ويفهم طرقه بقدر ما يستطيع هو أن يفهمها. فمثلًا، كان إلحاحه المستمرّ على «وحدانيّة الله» حقيقةً احتفظ بها كلّ لاهوت لاحق عليه وضمّها إلى حقائق أخرى. ولكنّ أخطاءه وحدوده وفهمه الخاطئ قد تعدّاها الزمن، وعُدّلت وأكملت بمفاهيم أكثر كمالًا في ما بعد.

ولا شكّ أنّ نصوص العهد الجديد تذكّرنا كيف رفض المسيح أن يُبهر الإنسان أو أن يجبره على قبول ألوهيّته ، وذلك برفضه القيام بأعمال طلبها الناس للبرهان بشكل قاطع على هويّته الإلٰهيّة . وكشف لنا بذلك عن الإرادة الإلٰهيّة التي فضّلت أن تبقى دائمًا عُرْضَة لسوء فهم الإنسان . ولو أنّ الإنسان لم يكُن شخصًا ، ولو أنّ الله لم يكن هو الله، لكان هذا الإلٰه قد كشف لذاك الإنسان عن نفسه منذ زمن طويل ببراهين قاطعة عن طبيعته الحقيقيّة . وبالتالي علينا ألّا ننتظر أن يكون علم اللاهوت على غير ما هو عليه الآن .

والآن سأحاول أن أخوض في «لاهوت السود» ، وأظن أنّه – من خلال ما سأقوم به – يمكنكم أن تجدوا ما يفيدكم في ظروفكم المعيشيّة الشخصيّة ، رغم أنّها مختلفة كلّ الاختلاف عن الظروف التي خرج منها اللاهوت الخاص بالسود .

هل للّاهوت لون ؟

يتساءل بعضهم هل يجوز لنا إضافة صفة عرقيّة أو لونيّة إلى كلمة اللاهوت . أو يمكن أن ننعت الرياضيّات – أو الكيمياء أو الفيزياء . . . إلخ بـ «الرياضيّات الأوروبيّة» مثلًا ، بحيث نجعل من هذا العلم مادة تختلف عن مثيلها في قارة «آسيا» ؟

ورغم أنّه يبدو غريبًا أن نُطلق صفة عرقيّة لنُشير إلى بعض المعارف الإنسانيّة كالعُلوم مثلًا ، إلّا أنّ استخدام هذه الصفة لنشير إلى بعض الأوجه الأخرى من النشاطات الإنسانيّة لَهو أمر مشروع . فالمرء لا يجد غضاضة في مصطلحات مثل «الفلسفة الألمانيّة» أو «اللاهوت الألماني» أو «الموسيقى

الألمانيّة» . . . فهي تُبيّن الفرق بين هذه القطاعات المعرفيّة ومثيلاتها الإنجليزيّة أو الإسكندناڤيّة . فلماذا نرفض مسبقًا أن نتحدّث عن «لاهوت للسود» ؟

إنّ صفة «أسود» أو «الجنس الأسود» قد اختيرت بعناية وعن قصد ، للتعريف بفئة من الناس كثيرًا ما عُرفوا بكلمات النفي مثل «ليسوا هذا ، ولا ذاك» ، أو بمصطلحات ذات معانٍ وضيعة وحقيرة وغير مقبولة من أصحاب الشأن على الأقلّ . وفي هذا السياق أصبح كل من هو «ليس أوروبيًّا» يُعامَل على أنّه «لا قيمة ولا وجود له» ، أو على أكثر تقدير كأنّه نصف شخص ، وهو ما يُؤدِّي بنا إلى النتيجة السابقة عينها .

وفي رأينا ، فإنّ صفة «أسود» هي تأكيد الإنسان الأسود نفسَه وتأكيد وعيه لوجوده ولإنسانيّته ولكرامته ولقيمته كإنسان .

* إذًا ، أوّل ما يتناوله لاهوت السود هو هذا الجزء من الإنسانيّة ، من الرجال والنساء الذين استيقظوا من سُباتهم العميق ، وأخذوا يعون أنّ لهم قيمة خاصّة بصفتهم أشخاصًا ؛ وأنّهم غير مُجبَرين على البحث عمّا يُبرِّر وجودهم يعرضونه على الآخرين .

كما أنّهم واعون أنّ لهم تجربة غنيّة في الحياة تتمايز تمايزًا كيفيًّا عن تجارب الآخرين ، وأنّ هذه التجربة يجب درسها وفهمها في ضوء ما أوحى به الله عن نفسه وعن ابنه الوحيد يسوع المسيح . وإنّ المقوِّم الأساسي لهذه التجربة الخاصّة بالشعب الأسود – والتي تتطلّب شرحًا لاهوتيًّا – هي خبرة الألم الذي يعانيه الإنسان الأسود ، ذلك الألم الذي سبَّبه له الإنسان الأبيض في بعض أمور العالم لا أقلّ .

وجدير بالذكر أنّ الإيمان المسيحيّ انتشر بصفة عامّة بين السود على

أيدي البيض، وأنّ البيض استخدموا لغتهم الخاصّة وأفكارهم وثقافاتهم في هذا الصدد.

وربما ركّزوا - بدون قصد - في نشرهم البُشرى المسيحيّة على الأجزاء التي ثبّتت الأمر الواقع الذي يجعل من الأسود عبدًا ومن الأبيض سيّدًا. غير أنّ هذا التمائز بين وضع الأبيض والأسود لم يكن بطبيعة الأمر سمة جميع المُرسَلين الذين بشّروا بالديانة المسيحيّة. ونشكر الله على جميع مَن بشّروا بالرسالة المسيحيّة بكامل معطياتها وبكلّ حياد. وعلى هؤلاء أن يعتبروا أنّ برهان نجاحهم هو أنّ تلاميذ الأمس أصبحوا يقفون على أرض صلبة، وينظرون إلى الأمور نظرة نقديّة ويطرحون أسئلة على معلّميهم، وغالبًا ما تكون هذه الأسئلة مُحيِّرة للمُعلِّمين أنفُسهم.

* والأمر الثاني الذي يختصّ به لاهوت السود هو رفض الادّعاء الضمنيّ الذي يمارسه البيض، وفحواه أنّ جميع القِيَم النابعة من حياتهم وجميع معاييرهم لها قيمة عالميّة. هذا الادّعاء لم يكن قطّ موضوع إعلان واضح ومتكامل لأنّه اعتُبر دائمًا وكأنّه جزء لا يتجزّأ من الحقيقة المطلقة، فلا مناقشة لما يخرج من المنبع. فكلّ ما يعتبره الغرب ذا قيمة أكاديميّة مضمونة، على الناس في جميع أنحاء العالم أن يقبلوه بهذه الصفة بدون مناقشة! حتى أصبح مضمون حياتنا اليوميّة وتوزيعه الزمنيّ شبه مُحدَّدَين سلفًا بواسطة الإنسان الأبيض. ويخال لنا أنّنا انزلقنا في لعبة، لم يكن الرجل الأبيض قد وضع قواعدها فحسب، بل أصبح هو الحَكَم الأوحَد لها.

فالرجل الأبيض - الذي كان يخشى التعبير عن عواطفه - قرّر أنّه على الإنسان، لكي تُطلق عليه صفة «العلميّة»، أن يكبت عواطفه

وشعوره، وبذلك يُصبح «موضوعيًّا». وبناءً على هذا القرار، قمنا – نحن السود – بتشويه طبيعتنا، لكي نبلغ هذا الهدف الغالي عند الغرب. وقد اكتشفنا بعد ذلك أنّ النتيجة كانت عَوْدَتَنا بـ «خُفَيّ حُنَين».

فقد خلقنا الله بطريقة تجعل منّا شعبًا لا يشعر بالخجل من عواطفه، لأنّها تأتي من الله. ونحن نرى أنّ موقفنا العلميّ يجب أن يترك مجالًا لشعورنا ولذاتيّتنا كي نُعبِّر عن أنفسنا. فنحن نحتاج إلى أن نشعر بأنّنا ممتزجون بموضوع بحثنا، وأن ندرك بالحدس ما لا يستطيع إدراكه مَن يريد أن يأخذ مسافة بعيدًا عن موضوع بحثه ويبقى خارجًا عنه. ويجعلنا لاهوت السود نقول: «لنشغل أنفسنا بما يختصّ بنا، ولنفعل ذلك بأسلوبنا».

لا ننكر أنّ كثيرين منّا قد استفادوا من تكوينهم الثقافيّ الغربيّ، ومن أمانة الأسلوب الغربي الممتلئة بالحيويّة. اذًا حين نُصرِّح بأنّنا نريد أن ندرس الأشياء على طريقتنا، فهذا لا يعني أنّنا لن نهتم بالدقّة العلميّة في منهجيّتنا أو أنّنا سنهملها. إنّ لاهوت السود يعالج موضوعًا حيويًّا، ولهذا الأمر، فهو لا يخشى أن تخضع أنشطتُه ومناهجه للفحص النقديّ. ولكن في جميع الأحوال، يجب أن تُحترم سلامة علم لاهوت السود، كما يجب النظر إليه في إطار معايير تحترم منهجه وأسلوبه ومادّته الأوّليّة.

وليكن معلومًا أنّنا لسنا مضطرين إلى الاستئذان من أحد لممارسة هذا النوع من اللاهوت. ولا نسعى حتّى يقبلنا الآخرون. وسواء قبل الغرب طريقتنا في عرض اللاهوت أو رفَضها، فلن يُغيّر ذلك من جوهر المشكلة. إنّ لاهوت السود أعظم من أن ينتظر تصفيق الآخرين، فهو الآن موجود وهذا يكفينا . . .

في ما سبق رأينا عرض ديزموند توتو لواحدة من أهم سمات اللاهوت الخاص بالسود الأفارقة : تأكيد هويّة جماعة المؤمنين التي نبع فيها ، وحقّها في الوجود والاستقلال الثقافيّ . وفي جزء آخر من المحاضرة نفسها ، يعرض توتو سمةٍ أخرى تخصّ سود جنوب أفريقيا . . .

ونعود مرّة أخرى إلى «لاهوت السود» ، ونقول إنّه يعالج القضيّة الشائكة وهي قضيّة وجود السود أنفسهم . وليس اللاهوت هذا أكاديميًّا بالضرورة ، ولكنّه ملتزم التزامًا كاملًا ومتفاعل بواقعه وله حدود مُعيَّنة : فهو وجوديّ . إنّ الموضوعات التي يدرسها هي المشاكل والتساؤلات النابعة من جماعة من شعب الله وهي الجماعة السوداء التي تعيش في موقف مؤلم يُجرّدها من إنسانيَّتها ويُبقيها في القهر بعد أن قضى على إنسانيَّتها . إن السود لا يشكّون لحظة واحدة في وجود الله ، كما أنّهم لا يشكّون في محبّته لهم وفي صلاحه ؛ وهم لا يشغلون أنفسهم بقضيّة وجود الله كما الحال هو عند المسيحيّين الغربيّين ؛ وهم لا يحاولون الإجابة عن السؤال : لماذا يوجد الألم إن كان هناك إلٰه صالح ومُحبّ ؟ إنّ قضيَّتهم الخاصّة هي رغبتهم في معرفة إلى أيّ جهة يميل الله الكُلّيّ القدرة والمُتدفّق المحبّة !

ليس السؤال المطروح إذًا : «لماذا يوجد الألم في عالم فيه إله قدير ومُحبّ ؟» ، بل هو : «لماذا نتألّم نحن السود ألمًا مُبرحًا ؟» ليس السؤال أكاديميًّا بل وُجوديًّا : «هل من الممكن أن يكون الإنسان أسوداً ومسيحيًّا في الوقت نفسه ؟» و«لماذا يتمتّع البيض بالتفوّق على السود ؟» فالكلام في ما يتمتّع به البيض من طاقة وإبداع لا يحل المشكلة ، ولا يؤدّي إلى تأجيل السؤال الأساسيّ .

يُركّز اللاهوت الأسود إذًا على البحث في ما إذا كان من الممكن أن يعيشوا كمسيحيّين : «ما هو معنى الألم الذي يعانيه السود في ضوء ما

جاءت به نصوص الكتاب المقدّس في مُجملها بشأن موقف الله من الألم؟»
هل إلٰه الكتاب المقدّس فعلًا إلٰه «نشيد مريم»، الذي يُشبع الجياع ويصرف الأغنياء فارغين؟»، هل هو إلٰه الخروج، المُحرِّر الذي يُخرج شعبه من العبوديّة في شتّى أشكالها ليأتي بهم إلى أرض الموعد، أرض حرّيّة أبنائه المجيدة؟» أليس هو إلٰه الكتاب المقدّس الذي لا تخلو صفحة واحدة من الحديث فيه عن وقوف الله دائمًا إلى جانب الفقير والمقهور والأرملة واليتيم والجائع؟» أليس الله هو الإلٰه المهتمّ بتحرير شعبه ليقوده إلى ملء الحياة: حياة سلام ووَحْدَة وحُبّ؟».

هذا هو ما يشغل لاهوت السود، وهو لاهوت للمقهورين، لاهوت للتحرير. فهو يهتمّ بإنسانيّة الإنسان، وبخلاص شعب الله بكامله: خلاص القاهر وخلاص المقهور... خلاص القاهر الذي يتجرّد من إنسانيّته لأنّه يجرّد الآخرين من إنسانيّتهم. إنّ لاهوت السود يعي تمامًا أنّ ثمّة قيود باطنة تُقيّد الإنسان تختلف عن القيود الظاهريّة؛ ويعي أيضًا أنّ القضاء على بنية القهر التي أقامها البيض لن تؤدّي حتمًا إلى الدخول في عصر الحرّيّة الذهبيّ. إنّ الإنسان الأسود المقهور أصبح بدروه قاهرًا لإخوته قهرًا أسوأ من ذلك الذي يمارسه البيض، وكأنّ الشيء الوحيد الذي تغيّر هو لون البشرة القاهر. ولكنّ لاهوت السود ليس ساذجًا إلى هذا الحدّ، فالمسيح خلّصنا ليُعيد الإنسان إلى صورته الأولى. هذا الخلاص الذي أتى به المسيح يُحرِّر الإنسان من الخطيئة ومن الشرّ أيضًا، كما أنّه أتى ليُخلّصه من عبوديّة الاقتصاد والسياسة التي هي في الواقع تعبير عن الخطيئة والشرّ.

بهذه الطريقة، يتضمّن عمل المسيح إزالة جميع أنواع الحواجز، لتظهر بدلًا منها وحدة الإنسانيّة، بل وحدة الكون كلّه. وهذه هي غاية الرسالة الإلٰهيّة.

تحدّيات لاهوت السود

يُطالب لاهوت السود بأن تصبح جميع الممارسات اللاهوتيّة ثانيةً ممارسة كتابيّة، وبأن تُعالج المتطلّبات الحيويّة الخاصّة بالجماعات المسيحيّة في إطاراتها الخاصّة، ولا تعالج موضوعات بحدّ ذاتها يشغفها بعض اللاهوتيّين الذين يجدون متعة عقليّة في هذا التمرين العقليّ؛ فينبغي لهؤلاء اللاهوتيّين أن يقبلوا أنّ حديثهم اللاهوتيّ سيكون بالضرورة محدودًا.

إن لاهوت السود يتحدّى التيّارت اللاهوتيّة الأخرى فيصبو أن يكون لاهوتًا كتابيًّا حقيقيًّا يعالج قضيّة الإنسان بجُملته.

إنّ الفقراء، في جميع أرجاء العالم، يتنازلون عن أحلامهم في غد أفضل في ظلّ المسيحيّة، وذلك أمام ديانة مسيحيّة يبدو أنّها تزداد تحالفًا مع البُنى القهريّة. كما أنّهم يرون في هذه الديانة المسيحيّة استعدادًا للإبقاء على سياسات الأمر الواقع، وكأنّ إله المسيحيّين أصبح متشابهًا بآلهة الوثنيّة التي كان نشاطها لا يغيِّر شيئًا في العالم.

أمّا إلٰه الكتاب المقدّس، فهو على نقيض ذلك، فلا يمكن توقُّع أفعاله. فقد كان يُدهش شعبه بمبادراته بطريقة متميّزة، ويعلن أنّ التاريخ البشريّ ليس تاريخ الأمر الواقع بل هو حرّ ومنفتح الآفاق إذ يتّجه نحو اكتماله.

لماذا على الفقراء وحدهم أن ينشغلوا بالهداية السماويّة وأن ينسوا الاهتمام بغذائهم وكسائهم وباكتشاف مكان يسكنون فيه؟ لماذا عليهم أن ينسوا الاهتمام بحياتهم هنا والآن؟

إن لاهوت السود يُذكِّرنا بانّ المسيحيّة تتجسّد في الواقع بصورة خلّاقة ومُضيئة. إنّ مسيحيّةً كهذه عليها أن تعمل بصورة ملموسة على ترقية الحياة «هنا والآن». كما أنّه عليها أن تكون – دون التباس أو ازدواجيّة

– إلى جانب الله في مسيرة «الخروج». هذا الخروج يحرِّر الإنسان فيُتيح له أن يصبح ابنًا حرًّا لله .

البحث عن الأصالة والكفاح من أجل التحرير*

كانت سنوات الخمسينيّات والستينيّات من القرن العشرين سنوات حاسمة في تاريخ القارّة الأفريقيّة. ففي خلال هذَيْن العقدين بدأت الدول الأفريقيّة تتحرّر من نير الاستعمار الواحدة تلو الأخرى. وكأنّ هذه القارّة الفتية ماردٌ خرج من القُمقم بعد سُبات عميق. لقد كانت سنوات تحديد المصير والاستقلال السياسيّ عصرًا مجيدًا وُلدت فيه هذه الأمم الجديدة كلّها. وكم كانت تجربة الاستقلال هذه تجربة تُفقد الصواب!

ولكنّ هذه الفرحة الغامرة لم تطُل، فسرعان ما تحوّل هذا الاستقلال إلى التفاهة والسطحيّة. وامتلأت القارّة بالانقلابات في ظلّ غياب الحرّيّة الصارخ وانتشار الفساد وارتكاب المظالم. ورغم ذلك، فإنّ القارّة الأفريقيّة يمكنها أن تفخر بإنجازاتها، خاصّةً دولها التي أمضَت الوقت الكافي لبناء شعوبها. وعلى الذين يسمحون لأنفسهم بوضع أفريقيا في قفص الاتّهام أن يلوموا أنفسهم أوّلًا ويروا ماذا فعلوا بوطنهم [1]، لأنّ تاريخهم مُنذ العصور

(*) الجزء الأوّل من مقالة كتبها ديزموند توتو في مجلة الشعلة *(Flambeau)* بمدينة ياوندي - عدد ٤٩ - ٥٠ (فبراير - مايو) ١٩٧٦.

(١) المقصود حكومة جنوب أفريقيا البيضاء العنصريّة.

الوسطى حتّى العصر الحديث مكتوب بالدمّ ومُجلّل بالخزي، فعليهم أن يدَعونا لأنفسنا لنحقّق أهدافنا. وحتّى إن ارتكبنا أخطاءً، فعلى الأقلّ ستكون أخطاءنا نحنُ لا أخطاءَ الآخرين.

لقد تميّز تاريخ ما بعد الاستقلال في أفريقيا بسِمتين مترابطتين لهما علاقة بموضوع بحثنا.

أمّا السِّمة الأولى فهي البحث الدؤوب عن الأصالة التي تميّز الشخصيّة الأفريقيّة، وذلك في جميع مجالات النشاط البشري المُتاحة. وكان الهدف من وراء هذا البحث الحقيقيّ بلوغ تعبير الأفارقة التلقائي: «نعم ... هذا أمر أفريقي حقًّا».

إذًا هناك رغبة حقيقيّة في الوصول إلى ما يمكن أن نسمّيه «الأصالة الأفريقيّة».

وأمّا السِّمة الثانية، فهي غياب الحرّيّة الحقيقيّة. فمع أنّ الدول الأفريقيّة قد حصلت على استقلالها السياسيّ، إلّا أنّ الحرّيّة الحقيقيّة ظلّت غائبة رغم ما يمكن أن يدّعيه أصحاب النظرة العتيقة. ويتجسّد أهمّ ملمح غياب هذه الحرّيّة في القطاع الاقتصاديّ فيخضع هذا القطاع خضوعًا مخزيًا للاستغلال الغربيّ الجشع. ومن هنا، كان نضال الأفارقة من أجل التحرير من الاستغلال الاقتصاديّ ومِن القهر السياسيّ، خاصةً في تلك البلاد الخاضعة لأقليّات بيضاء في القارّة والمحكومة بواسطتها، بجانب البلاد الأفريقيّة المستقلّة سياسيًّا. فيجب تحرير القارّة من كلّ ما يُقيّدها، ومن كلّ ما ينزع عنها وجهها الإنسانيّ، سواء كانت القيود الفقَر أو الجهل أو المرض.

إنّ تصاعد الروح الوطنيّة الجديدة يجعلنا نرفض كلّ شكل من أشكال التبعيّة للغرب. تُعَرِّف الهويّة الغربيّة نفسها بأنّها حاملة الحضارة أو حاملة الإنجيل، ولكنّ أفريقيا عقدت العزم على اعادة اكتشاف روحها وهويّتها الحقيقيّة. هكذا نفهم، نحن الأفارقة، البحث عن الشخصيّة الأفريقيّة وعن الروح الأفريقيّة وعن السود الأفريقيّين وعن الأصالة الأفريقيّة. إن ظهور لاهوت أفريقيّ - وبالتحديد لاهوت أسود - هو جزء من مظاهر الرفض العنيد للوقاحة الغربيّة. هذه هي العناصر التي تُقدِّم لنا يد المساعدة في بحثنا عن الهويّة الأفريقيّة الحقيقيّة.

إنّ الاستقلال السياسيّ دواء فعّال حثَّ على إعادة الثقافة التقليديّة إلى مكانتها الأصليّة العالية، وكذلك على بزوغ الديانات المرتبطة بهذه الثقافة مرّة ثانية.

كما أنّ اللاهوت الأفريقيّ ولاهوت السود وُلِدا كَرَدِّ فعل إزاء وضع سائد لم يَعُد السكوت عنه يُحتمل. فغالبيّة الناس في أفريقيا يتّفقون على أنّ اللاهوت الأفريقيّ المسيحيّ كان ردّ فعل إزاء مسيحيّة ذات طابع غربيّ انتشرت في عموم أفريقيا. فحين شرع المُرسَلون الغربيّون في نشر المسيحيّة في أفريقيا، لم يفرِّقوا بَين صميم «الإيمان المسيحي» وبين «الحضارة الغربيّة»، لأنّ المسيحيّة في أوروبا كانت قد ذابت في الثقافات الأصليّة الموجودة في القارّة الأوروبيّة؛ ونتيجة لذلك نُقلت في ما بعد إلى الشعوب بكبرياء روحيّ وعنصريّ ممزوج بشيء من الوقاحة، كما ذكر أحد الكُتّاب الغربيّين.

فلقد لخّص روبير مُوفّات (Robert Moffat) رؤية المُرسَلين العامّة عن الأفارقة بقوله: «لقد استخدم الشيطان رجاله الأشرار، بنجاح منقطع

النظير، ليمحو كلّ أثر من الشعور الدينيّ في نفوس البِيتْشُواناس (Bechouanas) والهُوتُّنْتوس (Hottentos) والبُوشْمِن (Bushmen)، وحرمهم حرمانًا كاملًا من أيّ شعاع نورٍ يُخرِجهم من الظلام الدامس، كما حرمهم من المستقبل المُشرِق، ومن كلّ رباط كان يربطهم بالسماء»[٢].

ومن البديهيّ لمن كان يفكّر بهذه الطريقة أن يتبع سياسة الاستئصال الجذريّ تجاه كلّ ما هو أفريقيّ، واستبداله بكلّ ما هو غربيّ: أيّ ما يُعتبَر أرقى وأفضل.

وهذا ما جعل الأستاذ إيدُوُو (Idowu) يقول في نظرة المُرسَلين إلى الديانات المحلِّيّة: «لم يكن في وُسْع المُرسَل الغربي أن يستخدم دينًا اعتبره مسبقًا - قبل أن يترك وطنه - دينًا يُعَبِّر عن عتامة في الروح، وبالتالي يجب محاربته بجميع الطرق. هذه هي نظرة المُرسَلين الضيّقة عن الدين الأفريقيّ، وبالتالي اقترن ذكر هذا الدين - كُلّما تحدّث عنه - بضرورة تدميره»[٣]. وكأنّ رُوبِرتسون سميث (Robertson Smith) لم يكتب قطّ ما جاء في كتابه **ديانات الساميّين** (*Religions of the Semites*): «لا يمكن لأيّ دين وضعيّ أثّر في الإنسان، أن ينطلق من نقطة الصفر وكأنّ الدين عمومًا شيء يظهر لأوّل مرّة. فعلى أيّ نظام دينيّ جديد أن يحتفظ بعلاقة مع جميع الأفكار والممارسات التي وجدها حين ظهوره. ولا يُمكن لأيّ إطار جديد خاص بالإيمان أن يجد تجاوبًا مع مُتلقّيه إلّا إذا لجأ إلى

---

(٢) *African Ideas of God* p. 83 (E. W. Smith)

(٣) Bolaji Idowu, *African Traditional Religion*, p. 86

غريزة روحيّة وشعور دينيّ سابقَيْن عليه وموجودَيْن بين مُريديه . وكذلك لن يستطيع الدين الجديد أن يصل إلى مُريديه إلّا إن أخذ في الاعتبار الأشكال التقليديّة التي تجسّد فيها الشعور الدينيّ لديهم ، وإن استخدم اللغة القريبة والمفهومة من هؤلاء الناس الذين اعتادوا هذه الأشكال التقليديّة» .

وفي معرض كتابه عن موضوع مُشابه ، وبخصوص تبشير قبائل الإيبوس (Ibos)، قال الدكتور إيلُوجُو (Ilogu): «إنّ المُرسَلين البريطانيّين الشُبّان كانوا مملوئين بالأفكار الإصلاحيّة والعنصريّة ، كما كانوا مملوئين بالزهو والكبرياء . ولذلك فحين دخلوا ساحة التبشير ، كان ينقصهم التواضع الضروريّ كي يتعلّموا ؛ فقد أزالوا وحقّروا كل ما فعله أقرانهم السود الذين سبقوهم في هذا المضمار . وكان هذا الموقف سببًا رئيسيًّا صعَّب مِن قُدرتهم على الفهم فهمًا حقيقيًّا وفعّالًا لشعب الأيبوس وثقافته ، تلك الثقافة التي كان من الممكن تسخيرُها لخدمة الإنجيل . وحتّى الآن لم تجد هذه المشكلة حلًّا مناسبًا يجعل الإنجيل أقلّ غُربةً في بلاد الإيبوس وأكثر إنسجامًا مع طبيعة هذا الشعب [٤] .

هكذا ، لم يعترف الغربيّون إلّا بالقليل جدًّا ممّا يمثّل قيم الأفارقة وضميرهم الدينيّ . ويمكن إبداء الملاحظات نفسها على تجربة السود الواقعين تحت حكم الأقلّيات البيضاء ، حيث قيَمهم الإنسانيّة محدّدة بمعايير الإنسان الأبيض . فلكَيْ يعترف الإنسان الأبيض بالإنسان الأسود ، لا بدّ له من أن يرى في هذا الأسود صورة – وإن جزئيّة – من الإنسان الأبيض . ففقد الأنسان الأسود بالتالي كرامته كإنسان مُتميّز . ولهذا ظهر

(٤) Edmund Ilogu: *Christianity and the Culture*, p. 86

اللاهوت الأفريقيّ ولاهوت السود كردّ فعل لهذه العقليّة الغربيّة . إنّهما يطالبان البيض بالاعتراف بالشخصيّة الأفريقيّة ، وبالإنسانيّة التي تتمتّع بها هذه الشخصيّة . وتُعتبَر المطالبة هذه بأقلّ من ذلك تجديفًا على الله الذي خلق السود كما هم على صورته كمثاله . ولم يخلقهم ليكونوا مجرّد نسخة مُطابقة لمخلوقات أخرى ، حتّى لو كانت هذه المخلوقات على درجة كبيرة من الرُقيّ ومن العيش الرغيد .

وقد يخجل مَن انتهجوا نهج لاهوت السود من أنفسهم إذ يَرون – في تحليلي هذا – أنّ هذا اللاهوت ما هو إلّا ردّ فعل لشيء خارج عنهم ، وبالتالي فإنّهم لا يحظون بشرف المبادرة به . ولكن لا تبرير لردٍّ فعل سلبيّ مثل هذا ؛ فبإمكاننا أن نُبرهن أنّ تطوُّر العقيدة المسيحيّة يشبه رقّاص الساعة . فحينما كانت المثاليّة الهيجليّة[٥] ملء السمع والبصر لم يتورّع اللاهوت المسيحيّ عن الحديث عن الحُلوليّة[٦] ، وكان قد تأثّر بلا شكّ بالنزعة الهيجليّة ؛ ونتيجة لهذا التطرُّف في الحلوليّة ، نشأ اللاهوت المتسامي[٧] الذي ينتمي إليه كارل بارت (Karl Barth) كردّ فعل . وقد أدّى التركيز على التسامي مِن جهته إلى ظهور مقولة «ما هو فوق يُصبح

(٥) المثاليّة الهيجليّة : مذهب فلسفي يرى أنّ «الروح المطلق» هو مصدر الوجود ، بمعنى أنّ وجود الروح أو الفكرة سابقَيْن لوجود المادّة .

(٦) الحلوليّة : مذهب فلسفيّ يرى أنّ الله حاضر في المادّة ؛ وعند هيجل ، يقترب هذا المعنى من فكرة تجسُّد الكلمة في المسيحيّة : المسيح الكلمة حلَّ في جسد مادّيّ بعد أن حُبِل به من الروح القدس في العذراء القدّيسة مريم .

(٧) اللاهوت المُتسامي: هو عكس اللاهوت الحلوليّ ؛ وهو يرى أنّ الله متعالٍ عن المادّة ومُنزّه عن كلّ شيء ماديّ .

بيننا» (Un au-delà au milieu de nous) كما جاء في كتاب جون روبنسون **الأمانة لله**[٨].

واليوم ربّما نبدأ في تمييز اتّجاه جديد للاهوت نحو شعور مُتجدِّد بما يُسمّى (Mysterium tremendum et fascinans)[٩]؛ وهكذا أيضًا ينشأ ردّ فعل جديد.

ويمكننا القول، وبشكل أكثر موضوعيّة، إنّ اللاهوت الأفريقيّ ولاهوت السود هما إقرار بأنّنا نأخذ عقيدة التجسُّد على مأخذ الجدّ. فالديانة المسيحيّة - لكي تصبح أفريقيّة - عليها أن تتجسَّد في أفريقيا وأن تعبّر عن نفسها بلُغة تتحدّث إلى قلب الأفريقيّ وعقله، وأن تُقنعه بأنّه إذا كان خاطئًا فخطيئته نابعة من وضعه هو كأفريقيّ، لا لأنّه يتحمّل وزر الآخرين. أضِف إلى ذلك أنّ المسيحيّة ليست مُطالَبة بأن تُجيب الإنسان الأفريقيّ عن تساؤلات لم يطرحْها على نفسه قطّ، فلا بد لها أن تُعبّر عن نفسها انطلاقًا من مُحيطه الجغرافي والثقافي، وأن تتوجّه إليه في هذا الإطار المحدّد. فالمسيح أتى ليُكمل الناموس لا لينقضه؛ وعلى المسيحيّة أن تظهر اكتمالًا وإتمامًا أنبل لتطلّعات الإنسان الأسود الروحيّة والدينيّة، وفي الوقت نفسه حَكَمًا ومُنصفًا له في كلّ ما يحطّ من شأنه بصفته خليفة الله. إنّ ما قاله ماكس ڤارِنْ (Max Warren) عن قبائل الإيبوس في مقدمة كتاب الدكتور إيلُوجُو يصحّ قوله في جميع الأفريقيّين: «إنّ شعب الإيبوس يمكنه أن يجد في الإيمان المسيحي كلّ ما هو عميق في تراثه الدينيّ. ففي

---

(٨) John Robinson, *Honest to God*

(٩) عبارة لاتينيّة معناها: سرّ الله الذي يخيف ويجذب في آنٍ واحد.

الإنجيل، سيكتشف شعب الإيبوس أنّ رغبة جميع الأمم، بالنسبة إليه، قد تحقّقت» .

وفي هذا الإطار، اجتمع بعض اللاهوتيّين الأفارقة في عبادان (Ibadan) في عام ١٩٦٦ فأعلنوا: «نحن نعترف بطبيعة الوحي الجذريّة حيث عبّر الله عن نفسه في يسوع المسيح. فبفضل هذا الوحي، نستطيع أن نُميّز اليوم، في تراثنا السابق للمسيحيّة ما هو إلهي حقّ، وما هو غير ذلك. فليست معرفة الله حلقات منفصلة تمامًا عن المعرفة التقليديّة التي ورثتها شعوبنا الأفريقيّة» .

إن اللاهوت الأفريقيّ ولاهوت السود يُشكّلان نقدًا عنيفًا لاتّجاه يحتكر الصياغات اللاهوتيّة ويُحدُّها جغرافيًّا في شمال الأطلنطي. ورغم أنّ الغربيّين عامّة مدعوّون إلى صياغة لاهوت مسكونيّ وعالميّ، إلّا أنّهم يريدون أن يكون هذا اللاهوت المسكوني والعالميّ مطابقًا للاهوتهم الخاص؛ وهذا عين الخطإ، فليس اللاهوت الغربيّ أكثر مسكونيّة أو عالميّة ممّا يُمكن أن تتمنّاه التيّارات اللاهوتيّة النابعة من مناطق أخرى، لأنّه لا يُمكن أن يصبح اللاهوت عالميًّا. فالعالميّة والشموليّة تُطلق على إنجيل سيدنا يسوع السميح الخالد فقط وأمّا اللاهوت فهو مادّة إنسانيّة تحمل حدود من يصيغونها وخصوصيَّتهم. والمسيح لا يُعتبر إنسانًا عالميًّا إلّا لكونه إنسانًا حقيقيًّا، إنسانًا فريدًا ينتمي إلى بُقعة مُعيّنة من الأرض.

وبالتالي فلن يكون للّاهوت معنى حقيقيّ إلّا إذا توجّه إلى جماعة مسيحيّة خاصّة ومحدّدة بزمان ومكان معيّنين، وعليه أن يقبل بكلّ تواضع سرّ خُصوصيّته وطبيعته العرضيّة.

إنّ اللاهوت الأفريقيّ كذّب الاعتقاد الذي كان سائدًا، والذي كان فحواه أنّه يجب أن ننتظر قدوم الإنسان الأبيض لكي يصبح لدينا دينٌ حقيقيّ في أفريقيا. وكذلك عرض هذا اللاهوت خدمة جليلة إلى تاريخ أفريقيا، حين أعاد الكرامة إلى الوعي الدينيّ الأفريقيّ. إنّ اللاهوت الأفريقيّ ولاهوت السود قد نفيا بكلِّ إصرار الادّعاءات الخفيّة التي ترى أنّ كل ما هو أبيض جيّد ومقبول، بل أفضل ما في الوجود؛ كما أنّهما منحا الإنسان الأسود الإحساس بالفخر بكلِّ ما هو أسود وبكلِّ ما هو أفريقيّ، فبهذه الطريقة فقط، يمكننا أن نُساهم - بحسب إمكانيّاتنا الخاصّة - في تشييد ملكوت الله، لأنّنا نخدم ونحبّ الله انطلاقًا من هويّتنا وواقعنا. ولا يمكن أن نفعل ذلك من منطلق انتمائنا الشرفيّ إلى البيض.

الألم الذي يعانيه الإنسان الأسود*

قضيّة الألم عبر التاريخ

إن قضيّة الألم قضيّة قديمة فرضت نفسها منذ زمن بعيد على جميع مؤمني الأديان السماويّة. فالألم لدى الإنسان المُلحد يُشكِّل جانبًا من جوانب الحياة لا أكثر ولا أقلّ، لأنّ المُلحد لا يشغل نفسه بشرح هذه المسألة في ضوء وجود إله صالح وقدير، بل يقبل وجود الألم في الحياة ويحاول أن يُخفِّف من سطوته، إلّا أنّه ليست لديْه «ضحيّة إلهيّة» يوجِّه إليها اللوم على المأزق الذي وصل إليه العالم.

أمّا مَن يؤمن بالثنائيّة، فلديه حلٌّ آخر: فهو يؤمن بأنّ في العالم مبدأيْن أزليّين يتعايشان معًا، مبدأ الخير ومبدأ الشرّ، النور والظلام؛ وهما يتحاربان للسيطرة على العالم حربًا لا هوادة فيها ولا هُدنة؛ إنّ التاريخ الإنسانيّ هو ميدان هذه الحرب التي لا تنتهي. ومن هنا يأتي الألم الذي ورثه الإنسان.

(*) مُقتطف من محاضرة ألقاها ديزموند توتو عام ١٩٧٣ في ألمانيا الغربيّة وذلك في حلقة دراسيّة أقامتها الكنيسة الإنجيليّة في ڤِسْتْفاليا – Westphalia.

وعلى النقيض، فَمن يؤمن بوجود إلٰه لهذا الكون، لن يجد – لشديد الأسف – مهربًا سهلًا من مواجهة قضيّة الألم. وغالبًا ما تُطرح الإشكاليّة على النحو التالي: إمّا أن يكون الله كُلّيّ القدرة وبامكانه وضع حدّ لجميع آلام البشر ولكنّه لا يريد ذلك، وبالتالي فهو ليس إلٰه الخير؛ وإمّا أنّ الله خيِّر وكُلّيّ الحبّ، ولهذا يودّ أن يضع حدًّا لجميع آلام البشر ولكنّه لا يستطيع لأنّ سلطانه محدود على الكون.

إلّا أنّ المؤمن بوجود الله يرفض أن يقبل هذا العرض للقضيّة عرضًا ساذجًا مغلوطًا، وإنّه يُعلن أنّ الله موجود وخيِّر وكُلّيّ القدرة. ويبقى السؤال الكبير: إذن لماذا الألم؟ هذا هو السؤال التقليديّ عن قضيّة الشرّ. وقد حاول اللاهوتيّون في جميع العصور أن يجدوا له حلًّا.

وأمّا المؤمن الأسود، فيعرض مسألة الألم بشكل يختلف كثيرًا عن الطرح الكلاسيكيّ التقليديّ.

«الألم الأسود»

منذ البداية نؤكّد أنّ الإنسان الأسود لم يحتَجْ قطّ إلى المرور بالإيمان الثنائيّ أو الموقف الالحاديّ ليصل إلى الإيمان بالله، لأنّ الإيمان بإله مُتسامٍ قد رضعه مع لبن امّه. ومع هذا لا يجوز لوم الإنسان الأبيض المؤمن إذ يجد صعوبة في فهم جملة غاية في البساطة أولا وهي: «الله يحبّك». لقد أمضى اللاهوتيّون الغربيّون وقتًا طويلًا لشرح مثل هذه المعتقدات اللاهوتيّة للمؤمنين في الغرب، ونحن لا نستطيع أن نلوم المؤمن الغربيّ بسبب هذه القضيّة الإيمانيّة التي يتكرّر طرحُها تكرارًا دوريًّا، ولا أن نلوم المؤمن الأسود بسبب إيمانه العنصريّ بالله. فهذا هو الواقع ويجب أن نسلّم به.

إن كان المؤمن الأسود لم يَشُكّ قطّ في أنّ الله كُلّيّ القدرة وفي أنّه محبّة، فكيف طُرحت عليه قضيّة الألم؟ وكيف أثّرت في إيمانه بالله تأثيرًا حاسمًا؟

إنّ كيفيّة طرح السؤال عند الأسود مختلفة، فالمؤمن الأسود لا يطرح السؤال على هذا المنوال: «لماذا يوجد الألم في عالم يوجد فيه إلٰه صالح كلّيّ القدرة؟» ولكن يطرحه هكذا: «لماذا نحن السود نتألّم أكثر من غيرنا في عالم يوجد فيه مثل هذا الإلٰه الصالح الكلّيّ القدرة؟».

ويتساءل الإنسان الأسود: «في أيّة جهة يقف الله؟» فهو يشعر بأنّه يخسر على طول الخطّ في مواجهة الإنسان الأبيض. وأنّ الإنسان الأبيض أثبت دائمًا أنّه متفوّق على جميع الجبهات: فلديه طاقة أكبر وذكاء أحَدّ وصحّة أفضل ... إلخ. إنّ إحساس الإنسان الأسود هذا جعل نظرته إلى قضيّة الألم نظرة معقّدة، لأنّه تصوَّر أنّ للإنسان الأبيض ميزة فطريّة تجعله متفوِّقًا عليه؛ وبالتالي تُظهره وكأن الله يفضِّله، وتجعل من الإنسان الأسود إنسانًا من الدرجة الثانية لدى هذا الإلٰه.

هذ هي المشكلة الكامنة في قلب تجربة الإنسان الأسود، وسأسوق مثلًا لا مبالغة فيه: إذا وقع حادث في السكك الحديديّة في جنوب أفريقيا، وأدّى هذا الحادث إلى مقتل عدد كبير من السكّان، فإنّهم لا يطرحون السؤال المعتاد: «لماذا هذه الآلام في العالم؟ ولماذا يُقتل الكثير من الناس عشوائيًّا في حوادث السكك الحديديّة؟» ولكنّهم يصيغون السؤال بطريقة أخرى: «لماذا لا تحدث هذه المصائب إلّا لنا نحن السود؟» ويبدو أنّ هذه الصياغة تشبه إلى حدّ كبير موقف اليهود الذي عبّرت عنه شخصيّة «شيلوك» اليهوديّة في قصّة وليم شكسبير «تاجر البندقيّة». ففي هذه القصّة

يرد على لسان شيلوك: «أصبح الألم رمزًا لكلّ عشيرتنا». فنستنتج من ذلك أنّ هناك قضيّة وجوديّة بتمام معنى الكلمة. وهي مشكلة تؤرّق السود في حياتهم اليوميّة.

ومن هنا نطرح السؤال، وإن بدا غريبًا للبعض: «هل من الممكن أن يكون المرءُ أسودَ ومسيحيًّا في الوقت نفسه؟». لا تظنّوا أنّ الغرض من هذا السؤال تعقيد الموقف أو أنّه سؤال نظريّ محض، ولكنّه بمثابة صرخة مؤلمة نابعة من القلب ومن صميم الوجدان. ولكي نجد جوابًا عن هذا السؤال، علينا أن نتكلّم بكلّ تواضع ومعايشة وتفهُّم، وأن نبتعد عن التحليق في الأعالي وكأنّنا في جبال الألب، بل نقترب وكأنّنا نسير إلى جانب هذا الإنسان الفقير المتردّد المتألِّم. فإنّ المقاربة الواقعيّة للمشاكل هي الطريق الصائب لمواجهتها، سواءٌ أكنّا بيضًا أم سودًا.

كَمْ من المرّات جَدَّف على الله مَن يمكن أن نسمّيهم اليوم حقًّا خلفاء «أصدقاء» أيّوب، هؤلاء الذين يدّعون أنهم خير المطَّلعين على فحوى الأمور، وكأنّهم على اتّصال مباشر بالغرفة التي يجتمع فيها مجلس الإدارة الإلٰهيّ الثلاثيّ الأعضاء! علينا إذًا أن نعترف بعجزنا المطلق عن تفسير المشكلة، وبأنّ قضيّة الشرّ والألم ما زالت سرًّا. لأنّ الإجابة العميقة عن السؤال «لماذا الألم؟»، تعني أنّنا قد صرنا آلهةً، لا بشر. فلن نعرف قطّ كلّ ما هو موجود وقابل للمعرفة في عالمنا لأنّنا بشر محدودون. ولكن ذلك لا يعني أن نتوقّف عند هذا الحدّ، فنحن نستطيع أن نبدأ برفض - رفضًا واضحًا - جميع الحلول المعروضة غير المُرضية وغير المقبولة.

«الألم غضبٌ من الله ؟»

سيرفض السود تمامًا وباشمئزاز الحلّ الذي يقول لهم إنّ ما يعانونه الآن من آلام هو جزاء ما اقترفوه من كُفر.

إنّ أحدًا منهم لن يشكّ في أنّ هناك علاقة بين الشرّ والخطيئة من جهة، وبين الألم من جهة أخرى؛ ولكنّ تطبيق نظريّة «التعويض» لتفسير قضيّة الألم يُسَطِّح المشكلة؛ فالمسألة أكثر تعقيدًا من أن تُفسِّرها نظريّة «التعويض»[1].

وربّما يتلقّى الأفارقة بارتياح أكثر وجهة نظر القدِّيس أوغسطينوس في شرح قضيّة الألم؛ فهو يرى أنّ الألم سببه خطأ وقع في طفولة الجنس البشريّ المبكِّرة.

وتروي أحدى الأساطير الأفريقيّة التي تفسِّر أصل العالم، أنّ هناك زمنًا كانت فيه السماء أكثر اقترابًا من الأرض ممّا هي عليه الآن. ولكنّ نساء القرية - مساكين هنّ النساء! - وهن يهرسن الحبوب في الهاون، كنَّ يُصَوِّبن يد الهاون إلى عين الإله، حتّى إنّ الإله رأى من باب الحكمة أن ينسحب من المكان، تاركًا بينه وبين هؤلاء النسوة مسافة مضمونة.

ولكن إن كانت وجهة النظر الأوغسطينيّة أكثر إقترابًا من الحقيقة، فإنّها لا تحلّ معضلة معرفة الأسباب الحقيقيّة للآلام التي يتكبّدها الإنسان الأسود، أكثر من غيره من البشر، بسبب هذا السقوط الأوّل.

---

(١) نظريّة «التعويض» نظريّة قديمة ادّعت أنّ الله أراد موت ابنه الحبيب «تعويضًا» عن خطايا العالم حتى يستوفي جزاء آثام البشر. وهذه النظرية تربط بين الخطيئة والألم في علاقة سببيّة.

إذن ما الذي بقي لدينا للإجابة عن السؤال ؟ أعتقد إن رجاءنا يتوافق مع نظرة إيريناوس إلى الله .

فللقدّيس إيريناوس نظرة لاهوتيّة متكاملة ، وبالتالي نظرة أُخرويّة إلى قضيّتي الألم والشرّ . وهذه النظرة لا تتمركز حول الخطيئة الأصليّة ، بل تجذبنا إلى الأمل في المستقبل والنهاية الممجّدة التي ستتمّ في ملكوت الله .

إنّ هذه النظريّة الإيريناويّة تُعبّر عن المعنى نفسه الذي نجده في نشيد عيد القيامة في الطقس الغربي : O felix culpa أي «أيّتها الخطيئة المباركة» . ويؤكّد النشيد أنّه من خلال الشرّ والألم أتانا وسيأتينا خير عظيم . كما يؤكّد أنّه من خلال حياة وموت المسيح وقيامته اتّخذ الألم صفةً جديدةً ودورًا جديدًا ووضعًا جديدًا ، فالألم جزءٌ لا يتجزّأ من قصد الفداء الإلٰهيّ : «إذا أراد أحد أن يتبعني فليتخلَّ عن ذاته ويحمل صليبه ويتبعني» (مر ٨/٣٤) . فعلى من يريد أن يكون صديقًا للمسيح أن يتشبّه بسمعان القيروانيّ ، هذا الأفريقيّ الذي ساعد يسوع على حمل صليبه . هكذا نبتعد عن المفهوم الذي ذكرناه سابقًا ، والذي يُعشّش في أذهان السود وأحاسيسهم ، والذي يأخذ صيغة : «أنت ابنٌ لله من الدرجة الثانية» . فالمشاركة في آلام المسيح تعلن أنّ المتألّمين من أصدقاء يسوع وأحبّائه معذورون ، هؤلاء الذين يتمّمون في أجسادهم ما ينقص من شدائد المسيح ، هؤلاء الذين عليهم أن يكتشفوا أنّ الوصول إلى فرح القيامة مع المسيح لن يتمّ إلّا من خلال المرور بالجمعة العظيمة .

الألم سببٌ للبركة

ولكنّ هذا لا يعني أنّ هدفنا هو أن ندعو إلى ما يمكن أن نسمّيه

المازوشيّة[٢] الدينيّة. فما زلنا نرى أنّ الخطيئة والألم أمر غير مستحبّ، وعلينا أن نقضي عليهما مهما تكلّف الأمر من ثمن وجهود. ومن واجبنا أن نُعلن بوجه قاطع أنّ المسيحيّة لم يكن لديها النيّة قطّ في تخطيط «يوتوپيا» أرضيّة، ولا أنّها أداة لمثل هذه «اليوتوپيا»؛ ولكن علينا كمسيحيّين أن نعرف كيف نُقيم علاقة صحيحة بين رؤية العالم الحاضر رؤية واقعيّة ورؤية العالم المستقبل رؤية معقوليّة.

وهنا قد تتّفق وجهة نظرنا مع ما رآه أحد الشعراء، حين قال: «إنّ هذا العالم هو المكان الذي تُطرق فيه النفس كما يُطرق الحديد ليُطوّع شكله، إذ تكون أنظارنا مُوجّهة – في أثناء هذا التطويع – نحو السماوات الجديدة والأرض الجديدة».

نعم، على الكنيسة أن تُبشّر – في كلّ وقت – أنّه ينبغي تحسين الظروف المعيشيّة هنا والآن، وأن تُلحّ في إظهار اهتمام الله بالإنسان في جميع أبعاده – السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة – لا بروحه فقط.

هكذا يصبح الألم الذي يعانيه الإنسان الأسود أداة تتيح الفرصة لآخرين أن يُطوّعوا أنفسهم أيضًا، وأن يتعدّوا اشمئزازهم ورفضهم لمساعدة من لا يشاركونهم المكانة، وأن يتنازلوا عن البحث المتحرّي في كيفيّة الإعلاء المبالغ فيه لأصلهم العرقيّ.

وقد يُعلّم هذا الألم أيضًا الآخرين كيف يعترفون ببعض الحقائق التي يشعر بها السود، مثل حقيقة ضرورة تضامن الأسرة البشريّة بعضها مع بعض.

---

(٢) المازوشيّة هي نزعة الإنسان إلى تعذيب ذاته واستمتاعه بتعذيب الآخرين له.

ألا ترون أنّ بعض الناس الانفراديّين يمكنهم أن يفرحوا حين يُدركون أنّ الخلاص - شأنه شأن الحرّيّة - لا يمكن تجزئته، وأنّ الفداء هو عمل جماعيّ؟

وسنصبح جميعًا مواطنين في المدينة السماويّة، ولا مسافرين جنحت بكلٍّ منّا سفينته واستقرّت على جزيرة معزولة. فعلينا أن نتعلّم كيف نأخذ الفداء مأخذ الجدّ، وكيف أنّ مقولة مثل: «ما أكثر الكعك في السماء بعد الموت» [٣] - والتي يردّدها بعض اللاهوتيّين السود - ما هي إلّا فهم للإنجيل فَهمًا ضحلًا وركيكًا.

إنّ العوامل السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة هامّة للغاية لا للسود فحسب بل لجميع البشر. ونحن لا نسعى إلى تحطيم العالم الذي نعيش فيه، بل نريد السماوات الجديدة والأرض الجديدة الآتية أيضًا.

نعم، نحن نتطلّع إلى ما بعد هذه الحياة. إنّ فَهْم حقيقة الموت على أنّه نهاية أبديّة، لعبةٌ خطرة وغير مقبولة؛ وفي حالة التسليم بها، يصبح التفكير في وجود الله ضربًا من العدميّة والعبث.

قبول الألم شهادة ورسالة

يجب على الإنسان الأسود أن يشعر أنّ عليه واجبًا بأن يُعيد تبشير الإنسان الأبيض. وأمّا أداته في ذلك، فليست كثرة الاستشهاد بآيات من

---

(٣) بالإنجليزيّة: Pie in the Sky when you die، فهذا المثل التهكّميّ يلخّص في نظر بعض اللاهوتيّين السود فكرًا لاهوتيًّا مزيّفًا يَعِد المؤمنين - ولا سيّما الفقراء والمقهورين منهم - بالمنّ والسلوى، ولكن في السماء ولا في الأرض، فعليهم ألّا يهتمّوا بحياتهم الأرضيّة هُنا والآن.

الكتاب المقدّس، بل إظهار أنّه – هو الأسود – مُنِحَ ميزة أن يُجسِّد في وجوده كلّه إنجيل المغفرة التي لا حدود لها . ويجب أن نميّز بين المغفرة من جهة والتواكل وقبول العبوديّة من جهة أخرى؛ فالمغفرة، لكي تقدر على الشفاء الحقيقي، يجب أن تفضح الخطيئة لا أن تهادنها، فالخطيئة خطيئة مهما تلوّنت .

إنّ الإنسان ألاسود لا يستطيع أن يفعل ذلك إلّا إن قَبِل ذاته كإنسان له قيمته، ورفض كلّ محاولة لاستئصال عقله وإنسانيّته . كما أنّه عليه أن يقاوم جميع الحِيَل الشيطانيّة التي تهدف إلى جعله منكفئًا على ذاته، وجعل قلبه مرتعًا للحقد . وعليه أن يعرف أنّه في حلٍّ من ردّ الفعل الانتقاميّ، لأنّ الكتاب يقول : «لي الانتقام، يقول الربّ» .

كيف يمكن أن أقول هذا الكلام دون أن أُتَّهم بالعمالة وبخيانة شعبي ؟ ولكن ماذا بوسعي أن أفعل والقدّيس بولس يقول : «ويلٌ لي إن لم أُبشِّر» ؟ أَوَليس الإنجيل الذي نبشِّر به هو إنجيل المصالحة ؟ لكنّ عمل المصالحة ليس بالأمر الهيّن، فقد كلّفت المصالحة الله موت ابنه . وربّما لا تتمّ هذه المصالحة إلّا من خلال المواجهة بين البيض والسود . فالمصالحة لا يمكن أن تتمّ إلّا بين شخصين متساويين . وبما أنّ الإنسان الأبيض يعتبر الإنسان الأسود أقلّ منه منزلة، فإنّ احتمالات المصالحة ضعيفة .

ولكن على الإنسان الأسود أن يعتبر نفسه أداةً للسلام . وهذا معناه أن نعيش اليوم الصلاة المجيدة التي نطق بها القدِّيس فرنسيس الأسيزيّ، فهي تُعبِّر عمّا نعيشه الآن :

يا ربّ استعملني لسلامك،

فحيث البغض، هبني أن أشير إلى حبّ شخص مثل ألبرت

لوتولي الذي يمدّ يده بالمصافحة

وحيث الكآبة على وجه امرأة وأطفالها فقدوا عائلهم، هبني أن أشير إلى الفرح،

وحيث اليأس من إجراء أيِّ تغيير، هبني أن أشير إلى الرجاء

وحيث الظلمة، هبني أن أضع النور.

يا إلٰهي، اعطني ألّا أبحث عن التعزية،

بقدر ما أبحث عمَّن أعطيه إيَّاها.

ألّا أبحث عمَّن يفهمني، بقدر ما أبحث عن أفهم الآخرين.

ألّا أبحث عمَّن يحبُّني، بقدر ما أبحث عمَّن أُحبُّه.

لأنّه في العطاء للآخرين نستقبل العطيّة،

وفي الغفران للآخرين تتمّ مغفرة ذنوبنا،

وفي موتنا عن ذاتنا نولد للحياة الأبديّة.

ويقول بولس الرسول في رسالته إلى أهل رومة في ٣٧/٨ - ٣٩:

«لكننّا في ذلك كلّه فزنا فوزًا مبينًا بالذي أحبّنا. وإنّي واثق بأنّه لا موت ولا حياة، ولا ملائكة ولا أصحاب رئاسة، ولا حاضر ولا مستقبل، ولا قوّة، ولا علوّ ولا عمق، ولا خليقة أُخرى بوسعها أن تفصلنا عن محبّة الله التي في المسيح يسوع ربِّنا».

المسيحيّة والفصل العنصريّ *

مقدمة

يُركّز هذا الفصل على نقض الأيديولوجيّة الدينيّة التي ترتكز عليها سياسة الفصل العنصريّ في جنوب أفريقيا، ونرى هنا قضيّة تأويل النصوص المقدّسة. فقد استندت أيديولوجيّة الفصل العنصريّ على بعض النصوص الكتابيّة، خاصّةً نصّ بُرج بابل الذي ورد في سفر التكوين وفحواه أنّ الله بلبل البشر حين حاولوا بناء برج يصعد إلى عنان السماء؛ وبناءً عليه، فإنّ هناك أشرارًا ملعونين من الله وهم الجنس الأسود، وهناك أبرارٌ يقومون ببناء الحضارة المسيحيّة وهم الجنس الأبيض.

تدور القضيّة كلّها إذًا حول «المصالحة» التي ينادي بها توتو في فهم عميق لقصد الكتاب المقدّس و«عدم المصالحة» التي تنتج عنها نظريّة الفصل العنصريّ التي تُشكّل أيديولوجيّة. ويورد توتو النصوص الكتابيّة التي تفحص وجهة النظر العنصريّة ليتبيّن تهافتها وعدم صمودها أمام الفهم العميق لعقيدة «المصالحة» بين البشر جميعًا، ناسفًا هكذا الأسس الأيديولوجيّة لهذه العنصريّة البغيضة.

(*) نُشرت هذه المقالة في كتاب جماعيّ عنوانه *Apartheid is a Heresy*, Cape Town, 1983

أودّ ، في هذا المقال ، التعرّض لسياسة «الفصل العنصريّ» أو «التنمية المفصولة» ، أو كما يُقال أحيانًا «الديمقراطيّة الموازية» . فمهما أُعطيت هذه الأيديولوجيّة العنصريّة من مسمّيات في الوقت الحاليّ ، فهذه السياسة شرّ مطلق . وشأشرع في إثبات ذلك ، محاولًا تشخيص الوضع الراهن بكل ما أوتيت من الموضوعيّة .

يكشف لنا الكتاب المقدّس أنّ قصد الله الخلاصيّ لكلّ الخليقة يتمثّل في الاتّساق والسلام والوحدة والأخوّة والصداقة والعدالة والاستقامة . . . وتتلخّص جميع هذه الأوجه في كلمة عبريّة واحدة يصعب ترجمتها وهي : «شالوم» ، «أي سلام» . وقد قام إيڤانز (C. F. Evans) بتحليل معنى هذه الكلمة على النحو التالي : «إنّ لفظة شالوم» هي كلمة شاملة تُعبّر عن جميع أشكال الحياة اليوميّة ، وتُفسّر الطريقة المثلى للحياة في إسرائيل . ومعنى كلمة شالوم الأساسي هو «الكُلّيّ» ؛ وأمّا الصفة «شالِمْ» فيُمكن ترجمتها بـ «كامل» «كُلّه» . . . و«سعادة» و«توافق» كما تعني بشكل خاصّ الرخاء الماديّ الذي لا يؤدي إلى العنف أو المصائب . والسلام هو «النموّ الحرّ بدون عوائق أمام النّفس (أيّ الشخص) . . . وكذلك التواصُل المتّسق ، فإنّ النفس البشريّة لا يمكنها أن تنشرح وتزدهر إلّا باتّحادها بأنفس بشريّة أخرى . هذا هو الشكل السليم لأيّة سعادةٍ أو نموٍّ حُرّ . . . ولكنّ جوهر هذه السعادة هو التواصل مع الآخرين ، وهو مبدأ الحياة نفسها» .

ويظهر عنصر أساسيّ في نصوص الكتاب المقدّس الأخرويّة ، ألا وهو أنّ الله يهب البشَر سلامًا أبديًّا لا يُنزع . إنّ منح الله البشر السلام النهائيّ في المستقبل يُعتبر عُنصرًا أساسيًّا في أسفار الكتاب المقدّس الأُخرويّة . يختلف القصد من هذا السلام النهائيّ ؛ فهو إمّا القضاء النهائيّ على جميع

أشكال الحروب ، فيملك مسيح إسرائيل على جميع الشعوب (أشعيا ٢/٩ - ٧، ميخا ٥/٥، حجّاي ٧/٢ -٩) ؛ وإمّا هو الحياة في النعيم حيث ستختفي جميع أشكال الصراعات بين البشر (أشعيا ١/١١ ت و٢/٢ - ٤ و٢٥/٦٥، حزقيال ٢٥/٣٤ - ٢٨).

إنّ ذروة قصّة الخلق في سفر التكوين (تك ٢٦/١) تكمن في خلق الإنسان على صورة الله كمثاله . وهذا ما يُميّز الإنسان عن بقيّة المخلوقات . وفي هذا النصّ ، لا يُميّز الكتاب المقدّس في داخل الإنسان، أيّ اختلاف جنسيّ أو إثنولوجيّ أو بيولوجيّ . ورغم أنّ هذا النص قد كُتب بروح مُناصرة للأُمّة اليهوديّة ، إلّا أنّ خلق الإنسان لا يُشير إلى أيّة تفرقة عنصريّة مبدئيّة بين البشر .

وأمّا سياسة «الفصل العنصريّ» فلا تكتفي برفض هذه التعاليم الكتابيّة ، بل إنّها ترفض رفضًا غريبًا فعل المصالحة النهائيّ الذي أتمّه الله في العهد الجديد في شخص ابنه الوحيد يسوع المسيح . فسياسة «الفصل العنصريّ» تقوم على فرضيّة تدّعي أنّه لا يُمكن الكائنات البشريّة وقد خلقها الله على صورته كمثاله أن تُقيم أيّة مصالحة في ما بينها . وهذا هو التناقض بعينه ، بين من يمارسون سياسة الفصل العنصريّ وبين الوحي الإلهيّ الذي يوضّح وضوحًا لا لبس فيه فِعل المصالحة التي تمّت في شخص المسيح ، بين الله والبشر وبين البشر في ما بينهم . ويمكن القول إنّ سرّ المصالحة هو ملخّص رسالة المسيح على الأرض ومَن يدّعي غير ذلك ، فإنّه لا يتغاضى عن وجه ثانويّ من أوجه الحقيقة المسيحيّة فحسب ، ولكنّه يرفض حقيقة جوهريّة من حقائق الإيمان المسيحيّ ؛ ونتيجة لما سبق ، فإنّ الفصل العنصريّ هرطقة ، وهو سياسة مدانة بسبب ما يُسبّبه من آلام مبرحة للبشريّة . . .

قصد الله من الخليقة

لا يدع الكتاب المقدّس مجالًا للشكّ في قصد الله من خلق الكون والإنسان ؛ فهو يتحدّث عن هذا المقصد تارة بنفي ما هو ليس قصد الله ، وتارة بتأكيده .

وفي لغة شاعريّة راقية مليئة بالصور البارعة ، يصف سفر التكوين الأمور كما أرادها الله في البدء . وإنّ رواية الخلق الأولى (تك ١/١ - ٢/ ٤) ترسم لوحة كونيّة يسودها السلام : فالإنسان يسود الخليقة باسم الله ، وكلّ شيء يسير في نظام رائع . وتشير النصوص إلى عدم وجود أيّ أثرٍ لسفك الدماء أو لطقوس ذبائحيّةٍ ، فسلام الله يُهيمن على كلّ شيء (شالوم) .

وأمّا قصة الخلق الثانية في الكتاب المقدّس (تك ٢/٥ - ٢٥) ، فهي تروي قصّة آدم وحواء وأحفادهما . فتصف أولًا حياة البراءة في جنّة عدن حيث يعيش آدم وحواء براءة الأطفال ويتنقّلان بين الحيوانات بدون عدوانيّة أو اعتداء ، وحيث يعيش الذئب والحمل معًا في سلام ، وحيث يسود الوئام بين الله والإنسان ، وبين الإنسان وأخيه الإنسان ، وبين الإنسان وبقيّة المخلوقات ، وبين الإنسان ونفسه .

إلّا أنّ القصّة تتحوّل تحوُّلًا سلبيًّا حين تعرّض قصد الله مؤقتًا للاختلال . فحينئذٍ نجد الخلل والخلاف والاغتراب والانقسام . فلأوّل مرّة في تاريخ الخليقة يظهر الخلاف والانفصال بين آدم وحوّاء . وذلك بسبب خطيئتهما ؛ فيفقد آدم وحواء براءتهما ويختبئان من وجه الله (تك ٣/٨) . فيبدأ الصراع بين آدم وحوّاء ، حين يعاتب آدمُ حواء لأنّها حرّضته على عصيان الله (تك ٣/١٢) . وتبدأ العداوة بين الإنسان وعالم الحيوان ،

فسيسحق الإنسان رأس الحيَّة، والحيَّة ستسحق عقبه (تك ٣/١٥)، وتظهر للطبيعة أسنان ومخالب. ولن تنجو بقيّة الخليقة من عاقبة سقوط آدم.

ومنذ ذلك الحين، وقعت الخليقة بأسرها في العبوديّة، فنما فيها الشوك لأنّ الإنسان الذي وُهبت له هذه الخليقة ضلّ وتسبَّب في كارثة (تك ٣/١٨). وعلى الخليقة أن تنتظر تحرير الإنسان لتتحرَّر هي بدورها فتجد حريّة أبناء الله (روم ٨/١٩ - ٢٢). وهكذا نبع الانفصال والانقسام والصراعات بسبب الخطيئة، وتعارضت جميعها مع قصد الله الخلاصيّ.

إنّ هذه القصّة تتلاقى مع نصوص أخرى، منها قصّة برج بابل مثلًا، حين يبلبل الله لغة البشر بسبب خطيئتهم، حتّى إنّهم يفقدون القدرة على الاتصال بعضهم ببعض (تك ١١/٧) فالخطئية تحول دون أُخوّة البشر، وتُبدّد الناس على وجه الأرض. وليس هذا هو قصد الله على خلائقه. ولهذا السبب عينه، وبينما تئنّ الخليقة كلُّها وتبكي انتظارًا للمصالحة، بدأ الله قصده الخلاصيّ الذي أدّى إلى صَلْب يسوع المسيح وقيامته. ويمكن القول إنّ كل ما جاء في الكتاب المقدّس بعد قصّة الخطيئة هو تاريخ الخلاص الإلٰهيّ الذي تمّ لكي يُصلح ما أفسدته الخطيئة الأولى، ولكي يُعيد الوحدة والوفاق الأصليّين بين الإنسان والله، والإنسان ونفسه، والإنسان وأخيه الإنسان، والإنسان والطبيعة.

ومن المهمّ أن نتذكّر أنّ الأوصاف الواردة في الكتاب المقدّس عن الجنّة الجديدة، والتي يتحدّث عنها زمن المسيّا، ما هي إلّا صَدًى لوصف الجنّة الأولى التي سبقت السقوط في الخطيئة. وهذا ما يُحدّثنا عنه أشعيا النبيّ حيث يُعلن أن الذئب سيعيش ثانية مع الحمل، والأسد والثور سيرعيان معًا، والحيوانات ستأكل الأعشاب ولن تأكل بعضها بعضًا؛ فإنّ دلالة الأوصاف

لا تَخفى علينا. وإن تذكّرنا العداوة بين آدم والحيّة في قصّة الخطيئة، اكتشفنا معنى ما يقوله النبيّ عن ولد (من ذريّة آدم) يلهو أمام جحر العقارب ويرقص عند وكر الحيّات بدون أن يصيبه مكروه (أش ١١/٤ - ٩).

ونستنتج ممّا سبق أنّ سياسة الفصل العنصريّ تتعارض تعارضًا مباشرًا مع شهادة الكتاب المقدّس. ففي الوقت الذي يُركّز فيه الكتاب المقدّس على أنّ قصد الله من البشريّة والخليقة هو الوفاق والسلام، والعدالة والكمال، الأخوّة والصداقة، يؤكّد نظام الفصل العنصريّ العكس تمامًا، إذ إِنّه يعتبر أنّ البشر مخلوقون أساسًا ليعيشوا في انفصال وانقسام واغتراب في ما بينهم.

ولا غرابة في أن يستخدم المدافعون عن الفصل العنصريّ قصّة برج بابل أحيانًا كمستند إلٰهيّ يُدعِّم أيديولوجيّتهم في «التنمية المتوازية» وفي التفرقة الإثنولوجيّة.

ورغم أنّه لا عيب في الحديث عن هويّة لشعب مُعيّن عرقيًّا وثقافيًّا، لأنّ جميع هذه الأشياء عطايا من الله يجب أن نشكره عليها، إلّا أنّه علينا ألّا نولي أهمّيّة خاصّة لجنس بشريّ على حساب جنس آخر، فلا يُمكن ان نستخلص من قصّة برج بابل - وهي تروي عقاب الله للإنسان على خطيئته وتصف هذا العقاب بأنّه عجز البشر عن الاتصال في ما بينهم - أنّ هذا النوع من العقاب هو قصد الله على مخلوقاته البشريّة. إنّ تفسيرًا مثل هذا التفسير لهو مُغرِض أو على الأقلّ مبتور ومغلوط. فإنّ الكتاب المقدّس لا يعترف بأي انفصال مشروع بين الأشخاص سوى الانفصال القائم بين المؤمنين والوثنيّين. وفي ما عدا ذلك، فايّ تعدٍّ أي تفرقة خطيئة.

عظمة عمل المسيح

إنّ بُشرى المسيح يسوع تتمتّع ببهاء أخّاذ، فهي تشبه جوهرة ذات وجوه لا نهاية لها، وتعلن عن قيمة كل شخص اللانهائيّة: «فشعور رؤوس البشر كلّها محصاة، ولا تسقط واحدة منها بدون إذن الآب». فهو راعٍ صالح يعرف كلّ واحد باسمه. وتعدنا بُشرى المسيح بأنّ الشرّ والموت لن تكون لهما الكلمة الأخيرة علينا. كما أنّها تُعلّمنا أنّه في مركز الكون هناك قلْب إلٰهنا الذي ينبض بحُبّنا، وأنّ هذا القلب لن يتركنا أبدًا.

إنّه يُحبّنا لا لأنّنا نستحق الاحترام، بل لأنّ حبّه لنا هو الذي يهبنا هذا الاحترام! «لأنّ المسيح مات من أجلنا إذ كنّا خطأة» (رومية ٥/٨). وهذا يُظهر قيمتنا في عين الله. ومهما اختلفت وسيلتنا لقراءة البُشرى الخلاصيّة، فإنّ جوهرها المسيحيّ يتلخّص في كلمة واحدة وهي «المصالحة». وهذا يعني أنّ يسوع جاء ليُعيد علاقة الصداقة والتواصل بين الله والإنسان، وبين الإنسان وأخيه الإنسان، وبين الإنسان وسائر الكون.

وحينما تحدّث المسيح عن ثمار ذبيحته قال: «وحينما ارتفع من الأرض سأجذب إليّ جميع البشر» (يوحنا ١٢/٣٢). فهو يجمع جميع أبناء الله الذين قد انفصلوا بعضهم عن بعض بسبب العرق أو اللون أو الثقافة أو الجنس أو الوطن. إنّه يجمعهم جميعًا في جماعة واحدة تسمو على جميع ألوان الحواجز والاختلافات التي تبدو للبشر مستحيلة التجاوز. ويضيف بولس الرسول في ٢ قورنتس ٥/١٩: إنّ الله كان في المسيح مُصالحًا للعالم».

إنّ مشهد هذه الجماعة الجديدة، وهي الكنيسة، لمشهدٌ رائع. فهي تجمع أناسًا لم يكونوا يتفاهمون في ما بينهم، على الأقلّ ظاهريًّا؛ ومع

ذلك فهم ينتمون إلى جماعة حيّة، تسودها الأخوّة، حيث السيّد والعبد، العالِم والجاهل، الرجل والمرأة، اليهوديّ والوثني، يتبادلون قبلة المحبّة، علامةَ اتّصالهم في ما بينهم. وكثيرًا ما أدهش هذا المشهد الوثنيّين، وكان من أكثر الوسائل فاعليّة في الكرازة لغير المسيحيّين، إذ كانوا يقولون: «كيف يحبّون بعضهم بعضًا» وكأنّ لهذه المحبّة قوّة جذب مغناطيسيّة لا تُقاوم. ولقد انفعل القدّيس بولس بشدّة حينما رأى الكنيسة مهدّدة في وحدتها، لأنّ هذه الوحدة عينها كانت جوهر الإيمان الجديد الذي كان يدعو إليه وحقيقته. فكان يعتبِر رفضَ هذه الوحدة إعادة لصلب المسيح.

ولقد وضّح بولس مرارًا أنّه، بفضل الروح القدس، اجتمع أناس مختلفون كُلّ الاختلاف في جماعة واحدة. وبإمكانهم أن ينالوا مواهب روحيّة مختلفة كُلّ الاختلاف؛ وبإمكانهم أن يمارسوا خدمات عديدة ومتغيّرة؛ فبفضل هذه الاختلافات يمكنهم أن يعيشوا كجسد واحد يُكمّل بعضهم بعضًا (١ قور ١٢/١٢ - ٢٦)؛ فإنّ كلّ عضو في هذا الجسد يحتاج إلى الآخرين ليعيش ويشترك في حياة الجماعة، ولا يمكن أن يكتفي عضو من الجسد بنفسه. لقد خلقنا الله في حالة احتياج إلى الآخرين بحيث لا تتحقّق إنسانيّتنا كاملةً إلّا في علاقتنا مع الآخرين.

إنّ الفصل العنصريّ هو على نقيض ذلك كلّه: فالقائمون عليه يرون أنّ اختلاف هويّتنا وتعدُّدنا يعنيان الفصل العنصريّ. ويعني ذلك استبعاد حقيقة جوهريّة في الكتاب المقدّس، وهي الإيمان بأنّ يسوع المسيح لم يُزل الحائط الذي كان يفصل بين اليهود والوثنيّين، فلم يجمعهم في شعب واحد وروح واحدة تتّجه نحو الله الآب. هذا ما يدّعيه أصحاب الفصل العنصريّ حين يقولون إنّ العضويّة في كنيسة معيّنة مشروطة بأن يكون لون

الشخص أبيض ، وإنّ هذه الكنيسة تستبعد من اجتماعاتها وبشكل مُنظَّم - جميع مَن ينتمون إلى أجناس أخرى ، وحتّى في دفن الموتى . وأمّا العهد الجديد ، فلا يمكن أن يُبرِّر مثل هذه التصرّفات العنصريّة ، إذ يذكّر القدّيس بولس بلا كلل بأنّه قد حدث أمر لا مثيل له في العالم بفضل موت المسيح وقيامته ؛ فكلّ ما كان - قبل هذا الحدث - غير قابل لمصالحة قد تصالح في المسيح. وقد كتب بولس : «إنّنا تعمّدنا جميعًا في روح واحد لنكون جسدًا واحدًا ، أيهودًا كنّا أم يونانيّين ، عبيدًا أم أحرارًا ، وشربنا من روح واحد» (١ قور ١٢/١٣) ؛ وقال أيضًا : «إنّكم جميعًا ، وقد اعتمدتم في المسيح ، لبستم المسيح . فليس هناك يهوديّ ولا يونانيّ ، وليس هناك عبدٌ أو حرّ ، وليس هناك ذكرٌ أو أنثى ، لأنّكم جميعًا واحدٌ في المسيح يسوع» (غل ٣/ ٢٧ - ٢٨) .

إنّ الفصل العنصريّ يُعلن أنّ البشر غير قابلين، بأيِّ حال من الأحوال، التصالح في ما بينهم . وهذا الإعلان يُزعزع واحدًا من الأسس المسيحيّة الراسخة .

إنّ أغلب علماء الكتاب المقدّس يقولون إنّ وضع الجماعة المسيحيّة الأولى إثر حلول الروح القدس (رسل ٢) يُمثِّل انقلابًا كاملًا لما حدث في قصّة برج بابل في العهد القديم ؛ فكانت نتيجة برج بابل تشتُّت الشعوب ، وأمّا في يوم العنصرة ، فإنّ الشعوب المختلفة التي جاءت من أركان الأرض الأربعة قد تفاهموا والتقوا معًا . فبعد حادثة برج بابل لم يعُد الناس يتفاهمون في ما بينهم ؛ والجدير بالملاحظة أنّ خطيئة البشر الذين كانوا يبنون البرج كانت رغبتهم في الارتفاع به إلى عنان السماء لمصارعة الله ، وأمّا في العنصرة ، فقد اجتمعوا جميعهم ليُمجّدوا الله .

ولهذا السبب، تبتعد ايديولوجيّة الفصل العنصريّ ابتعادًا كُلّيًّا عن روح الإنجيل، وهي تُولِّد الانقسام والعداوة والاغتراب وتؤجِّج الخلافات بين مختلف الجماعات المسيحيّة ومختلف الأعراق. وأقلّ ما تُوصف به هذه الايديولوجيّة هو أنّها تُخالف منطق روح الإنجيل ولا تتّفق معه.

صورة الله

كُتبت رواية الخلق الأولى في زمن السبي البابليّ. وغالبًا ما كان القصد منها تشجيع المسبيِّين اليهود معنويًّا: فكانت هذه الرواية تبيّن لهم مدى تفوّق إلٰههم على الآلٰهة البابليّة. ولهذا السبب يمكن اعتبارها دعاية وطنيّة لتمجيد الأمّة اليهوديّة، إذ إن ذروتها هي خلق الإنسان على صورة الله كمثاله (تك ١/٢٦). والعجيب هنا هو التأكيد أن كَوْن البشر مخلوقين على صورة الله ينطبق على جميع الخلائق البشريّة في زمن كان يمكن اليهود أن يقصروا هذه الصبغة على أنفسهم، ولهم عذرهم في ذلك. والأعجب أنّ الكاتب لا يتحدّث عن أيّ عنصر إثنولوجيّ أو بيولوجيّ كأحد مكوِّنات البشر. فكُلّ ما يهمّه هو أن يُبرز أنّنا جميعًا مخلوقون على صورة الله كمثاله؛ لذلك، فكلّ شخص يمثّل الله. وهذا ما يُضفي على كلّ إنسان كرامته وقيمته اللانهائيّة. وتُفسِّر لنا هذه الحقيقة الروحيّة لماذا نملك جميعًا حرّيّة معنويّة، ولماذا ندخل في علاقة مع الله، ولماذا نولد ولدينا حسّ بديهي بالله.

إنّ ايديولوجيّة الفصل العنصريّ تدّعي أنّ الانتماء الإثنيّ هو أهمّ شيء في الإنسان، في حين أنّها مُجرَّد عنصر بيولوجيّ لا دخل له في قيمتنا الإنسانيّة... وهذا الادّعاء معناه رفع مبدأ بيولوجيّ محدود إلى مصاف

المبادئ الشاملة التي تُضفي قيمةً على الكائن البشريّ؛ فيقول بعضهم: «هناك أناس أكثر إنسانيّة من غيرهم» . . . أو «السود بشر ولكن . . .» ويعني ذلك أيضًا تحديد الانتماء إلى الكنيسة على أساس لون البشرة والانتماء الإثني وقد صاروا مِعيارَين للخلاص؛ وكأنّ قبول المعموديّة والاعتراف بأنّ يسوع المسيح هو الربّ والمخلّص أقلّ أهميّة؛ وكأنّ القدّيس بولس لم يناقش قضيّة الختان مع المتمسّكين بالشريعة اليهوديّة الذين كانوا يطالبون بختان الوثنيّين الداخلين إلى المسيحيّة، متناسين أنّ الخلاص هو عطيّة مجّانيّة من الله . إنّه من المضحك التمسُّك بالإثنيّة واللون للداخلين في الإيمان!

الفصل العنصري آلام للبشريّة

عندما يشكُّ علماء الأخلاق في القيمة الأخلاقيّة الكامنة في فعل أو سلوك ما، فإنّهم يبحثون عن مؤثّرات في نتائج هذا الفعل أو هذا السلوك. فإذا اتضح أنّ نتائج هذا الفعل سيئة، فهناك احتمال كبير أن يكون المبدأ الأخلاقيّ نفسه سيّئًا . .. إنّ المسيحيّة لا ترضى ولن ترضى بالمبدأ القائل: «إنّ الغاية تُبرِّر الوسيلة»، خاصةً إذا كانت سعادة الإنسان هي المعنيّة. ولقد أظهر الفيلسوف كانط أنّه يجب ألّا يكون الأشخاص أبدًا وسيلة للوصول إلى غاية مهما كانت نبيلة، لأنّ الشخص هو غاية، في حدّ ذاته.

وفي الواقع، بالإضافة إلى الجروح الحيّة التي تُسبِّبها سياسة الفصل العنصريّ لجميع ضحاياها، بسبب إهانتها لكرامة الإنسان الأسود، تسعى هذه السياسة إلى تحويل السود إلى غرباء في بلدهم، وتشجِّع سياسة تفريغ جنوب أفريقيا من سكّانها الأصليّين.

وتستهدف هذه السياسة تشتيت الملايين من السود من أرضهم، فتقتلعهم من منازلهم، وتدعهم يلجأون إلى مراكز إعادة التأهيل المتناثرة في أماكن يصعب الوصول إليها.

وتُمثِّل هذه الكهوف المليئة بالفقراء والمعوزين احتياطًا لا ينضب من الأيدي العاملة الرخيصة. لقد زُرت أحد هذه المراكز ولن أنسى – ما حييتُ – ما قالته لي طفلة: «حين لا نستطيع الحصول على ما يُشبع جوعنا نملأ بطوننا بشرب الماء». هذه هي الحال. فالناس يموتون من الجوع بسبب سياسة حكوميّة مُتعمَّدة في بلد تفيض فيه المحاصيل الزراعيّة عن حاجة السكّان. ويرى الإنسان الأسود نفسه مُجبرًا على الذهاب إلى المدينة لينخرط في العمل كغريب، ولكي يعيش نزيلًا وحيدًا شريدًا في فندق؛ وقد تهدّمت حياة الأسرة السوداء بسبب السياسة الرعناء التي فُرضت على السود والتي رفضتها جميع الأمم. فنظام الفصل العنصريّ هو الذي قرّر أن يتلقّى السود تعليمًا غير متساوٍ مع التعليم الذي يتلقّاه البيض. وكان هذا القرار سببًا في التمرُّد الذي حدث في عام ١٩٧٦ وما سبَّبه من خرابٍ وعنفٍ وموت.

ولأنّ سياسة الفصل العنصريّ مرفوضةٌ وغير مقبولة إطلاقًا من أغلبيّة سكّان جنوب أفريقيا السوداء، فقد فُرضت قوانين يندى لها الجبين ولا يُمكن أن تطبّق في أكثر الدول شموليّة وبشاعة وسُنّت القوانين التي تخوّل الحكومة الحبس الاحتياطي بدون محاكمة، مخالفةً هكذا الدستور. وقد أدّى ذلك إلى موت واختفاء المساجين الذين لم يعرفوا قطّ سببًا لسجنهم، ولم يُخصّص لهم قطّ مُحامٍ للدفاع عنهم.

إنّ سياسة الفصل العنصريّ هي التي جعلت دولة جنوب أفريقيا تخوض حربًا تدّعي المحافظة على الحدود، بيد أنّها كانت في واقع الأمر حروباً أهليّة. إنّ هذه السياسة العنصريّة هي التي جعلت آلافًا مؤلّفة من سكّان جنوب أفريقيا يلجأون إلى النفي الاختياري، ويتألّمون من جرّاء هذا النفي الذي جرّدهم من أرضهم وتاريخهم. وما زالت قائمة تكلفة الفصل العنصريّ طويلة، ولكنّنا نكتفي بهذا، عسى أن أكون قد وضّحتُ كم سبّبت وما زالت تُسبّب الألم لبشر كثيرين. إنّ سياسة الفصل العنصريّ تستوجب الإدانة لأنّه لا مُبرّر لها أخلاقيًّا.

حاولتُ أن أبرهن أنّ الفصل العنصريّ هو شرّ مُطلق لا يجوز تبريره؛ وأنّ الآلام التي يُسبّبها ليست هي السبب الوحيد الذي يجعلها شرًّا، بل أيضًا قدرتها على التشكيك في أنّ الكائن البشريّ هو ابنٌ لله؛ فلذلك يجب إدانة هذه السياسة على أنّها هرطقة. ولهذا لن يسود السلام والأمل بلادنا الحبيبة إلّا بتفكيك آليّة الفصل العنصريّ وزوالها. ولا أشكّ لحظة واحدة في أنّ هذا اليوم آتٍ لا ريب فيه، لأنّه إذا كان الله معنا فمن علينا؟

هل اللاهوت الأفريقيّ هو لاهوت السود؟*

مقدمة

على الرغم من أن لاهوت السود ينتمي جغرافيًّا إلى أفريقيا، إلّا أنّه يُعبِّر عن مُجمل الأوضاع والتيّارات اللاهوتيّة في أفريقيا. ذلك لأنّ الوضع الخاص الذي كان يعيشه السُّود في جنوب أفريقيا جعلهم أكثر جذريَّة وأكثر كفاحًا من سائر الأفارقة في تعبيرهم اللاهوتيّ وممارستهم السياسيّة.

ولقد ارتفعت بعض أصوات اللاهوتيّين الأفارقة تُعارض مثل هذا الاتّجاه الجذريّ بحجّة أنّه لا يُعبِّر إلّا عن توجّهات لاهوتييّ جنوب أفريقيا؛ إلّا أنّ ديزموند توتو لا يرى تناقضًا بين اللاهوت الأفريقيّ ولاهوت السود؛ بل يراهما متكاملَيْن. وإن وُجِد تناقض فهو ظاهريّ ويُعبِّر عن حدَّة التحدّيات المطروحة على المجتمعات المختلفة في القارّة والتي بلغت ذروتها في وضع جنوب أفريقيا.

عند التيّارين الأفريقيّ والأسود مساحات اتّفاق أكثر من مساحات الخلاف. فالاثنان مثلًا يُعتبران ردّ فعل ضدّ المستعمر الغربيّ الذي وحّد -

---

(*) الجزء الثاني من مقالة كتبها ديزموند توتو في مجلة **الشعلة** *(Flambeau)* بمدينة ياوندي - عدد ٤٩ - ٥٠ (فبراير - مايو) ١٩٧٦.

على غير حقّ – بين الحضارة الغربيّة والديانة المسيحيّة، وجعل من هذه الحضارة النموذج الأوحد للإيمان المسيحي.

ظهر اللاهوت الأفريقيّ في القارّة بعد الاستقلال السياسيّ كردّ اعتبار للديانات التقليديّة التي طمسها المستعمر الغربيّ المسيحيّ بحجّة دونيّتها وعدم ملائمتها للعقائد المسيحيّة. وقد رفع اللاهوت الأفريقيّ بعد الاستقلال شعار الأصالة الأفريقيّة والتحرّر من التقاليد الغربيّة التي لا علاقة لها بجوهر الديانة المسيحيّة. إنّ اللاهوت الأفريقيّ هو نقد مباشر للهيمنة اللاهوتيّة الغربيّة التي لم تكن تعترف باستقلال الأفارقة وحقِّهم في تبنٍّي لاهوت جديد يتماشى مع حاجات القارّة الفعليّة.

فهذا اللاهوت هو أساسًا تعبير عن الأصالة وردّ فعلٍ لنوع من الاستعمار الثقافيّ.

أمّا لاهوت السود، فيتناول قضايا أخرى لا تقلّ أهمّيّة عن قضيّة الأصالة. إنّه لاهوت وُلد في رحم الألم والمعاناة التي عاناها سكّان جنوب أفريقيا السود عن يد طغاة الفصل العنصريّ. فقضايا الألم، والمغفرة، ورفض التفرقة العنصريّة تُعتبر أعمدة لاهوت السود الرئيسيّة.

على هذا، فاللاهوت الأفريقيّ ولاهوت السود قد أرجعا الكرامة والفخر والاعتزاز بالذات اللاهوتيّة الأفريقيّة.

وفي ما يلي كيف يُدافع توتو عن لاهوت السود، وكيف يتناول هذه القضيّة بموضوعيّة واتّزان.

إن وعينا لخصوصيّتنا الأفريقيّة يدفعنا إلى أن نأخذ تجربتنا في الحياة بحاضرها وماضيها على مأخذ الجدّ، وأن نعتبر هذه التجربة مصدرًا ومنبعًا

أصيلًا لفكر لاهوتيّ جديد، آملين أن نصبح أداة فعّالة وقادرة على إحداث تغيير حقيقيّ في الفكر اللاهوتيّ، بدون أن نقع فريسة لمجرّد تدريبات أكاديميّة. فعلى اللاهوت الأفريقيّ ولاهوت السود أن يتعلّما الواحد من الآخر وأن يتبادلا الخبرة والمشورة. وإنّي أجد كثيرًا من وجوه التشابه بين اللاهوتيّين المذكورين وأعتقد أنّهما مرتبطان ارتباطًا وثيقًا بعضهما ببعض.

إلّا أنّ جُونْ مْبيتي (John Mbiti)، ذلك اللاهوتي الأفريقيّ القدير، مقتنع بالعكس تمامًا. ففي مقال له بعنوان «نظرة أفريقيّ إلى اللاهوت الأسود في أمريكا»، كتب: «لا يُمكن أن يكون لاهوت السود لاهوتًا أفريقيًا». ومن حقّه أن يكون قاطعًا في رأيه. وأكمل مبيتي فكتب: «إن مركز اهتمام لاهوت السود يختلف اختلافًا تامًا عن مركز اهتمام اللاهوت الأفريقيّ، ذلك لأنّ اللاهوت الأفريقيّ ينبع من سعادتنا وتجربتنا الغنيّة المُعاشة في إطار الإيمان المسيحيّ، في حين أنّ لاهوت السود وُلِد من رحم الآلام والقهر»[1].

ويبدو أنّ كاتب المقال يشكّ بشكل ضمنيّ في مسيحيّة لاهوت السود، إذ كتب أيضًا: «ينشأ اللاهوت من الفرح التلقائيّ النابع من كون الشخص مسيحيًّا، ومن كونه قادرًا، أمام تحدّيات الحياة، أن يُجيب إجابة تليق بإنسان مُخلَّص. أمّا لاهوت السود فهو مليء بالأنين والمرارة والغضب والحقد».

ومن حقّنا نحن أن نتساءل هل تعتمد مثل هذه التصريحات على دراسة تاريخيّة للعقيدة المسيحيّة؟ ويبدو أن أغلب المتخصّصين في درس

---

(١) نشر هذا المقال في «An African views American Black Theologies» *World view*, August 1974

العهد الجديد يتّفقون على أنّ بولس الرسول قد كتب الرسالة إلى أهل غلاطية في لحظة غضب، وعرض فيها لاهوت التبرير بالإيمان. وماذا عن سفر الرؤيا - المسيحي - الذي كتبه يوحنّا اللاهوتي؟ ألا توجد فيه صِيَغ تُعبِّر عن القهر أو عن الغضب أو حتّى عن كراهية القاهر؟ ورغم كل ذلك فإنّ هذا الكتاب شقّ طريقه طوال هذه السنين داخل الكنيسة، وهو جزء لا يتجزّأ من الكتب التي يعترف بها الإيمان المسيحي.

إنّ استاذ مبيتي لا يرتاح للاهوت السود، لأنّ هذا اللاهوت يعتمد أساسًا على السود وعلى قضيّة التحرير. وما كتبه في هذا الصدد يُعبِّر عن رأيه: «إنّ لاهوت السود يهتم بموضوعات أخرى مثل الكنيسة والجماعة المسيحيّة والكتاب المقدّس والعالم والعنف والأخلاق. إلّا أنّ معالجة هذه الموضوعات تمّت من زاوية علاقتها بالسود وقضيّة التحرير وارتباطهما بيسوع المسيح وبالله فحسب».

وكتب اللاهوتيّ الأفريقيّ مُوغَامْبي (J. N. Mougambi) في **ملف الاتحاد العالمي لجمعيّات الطلبة المسيحيّة**[٢] عن موضوع «التحرير واللاهوت». إنّ «التحرير هو المهمّة الموضوعيّة التي يجب أن يستند إليها اللاهوت المسيحيّ الأفريقيّ، فهو ليس موضوعًا عاديًّا مثل سائر الموضوعات. ولكن جميع الموضوعات، على اختلاف أنواعها، تهدف بالفعل إلى تحرير الأفارقة من القيود التي تمنعهم من أن يعيشوا كبشر بتمام معنى الكلمة. إنّ عمليّة الفداء - سواءٌ في إطارها الأفريقيّ أو في إطارها الكتابيّ، بصفتها تصوّرًا لاهوتيًّا - لا يكتمل معناها من دون أن تتضمّن البُعد الاجتماعيّ للتحرير».

---

(٢) عدد يونيو ١٩٧٤ ص ٤١ و ٤٢.

وعلى اللاهوت الأفريقيّ ولاهوت السود أن يُلحّا في قضيّة التحرير، لأنّ التحرير - كما ذكرنا سابقًا - هو اهتمام رئيسيّ في عصرنا الحاليّ، ولا يُعتبر بديلًا للخلاص الشخصيّ في يسوع المسيح، بل يُعدّ نتيجة حتميّة نابعة من فهم إنجيل يسوع المسيح فهمًا حقيقيًّا. إن أفريقيا، في وقت نموّ المسيحيّة فيها نموًّا سريعًا، لن تقدر على الإسهام إسهامًا فعّالًا في إثراء حياة جسد يسوع وحياة الجماعة المسيحيّة العالميّة إلّا إن تحرّرت تحرّرًا سياسيًّا واجتماعيًّا واقتصاديًّا. ما من شكّ أنّ ثمّة فوارق بين اللاهوت الأفريقيّ ولاهوت السود، بل ويجب أن توجد مثل هذه الفوارق لأنّهما ينتميان إلى إطارَيْن مختلفين. فيمكن للّاهوت الأفريقيّ أن يتقدّم باعتدال أكثر في مواقفه، وإن كنتُ غير مقتنع بذلك، لأنّ أفريقيا، وإن استقلّت غالبيّةُ دولها سياسيًّا، إلّا أنّها تعاني قهرًا يختلف اختلافًا نوعيًّا عن القهر الناجم عن العنصريّة البيضاء في جنوب أفريقيا.

أمّا لاهوت السود، فقد رأى النور في إطار مُعاناة السود وآلامهم من قِبَل العُنصريِّين البيض، ونتيجةً لذلك، فمُهمّة لاهوت السود الأساسيّة هي إضفاء معنى لاهوتيّ على الآلام التي يعانيها الإنسان الأسود، في ضوء الوحي الإلٰهي في يسوع المسيح. فموضوع هذا اللاهوت هو إضفاء المعنى على الوجود الأسود وعلى كلمة التحرير، وعلى المصالحة والغفران، وعلى إعادة الكرامة الإنسانيّة.

إنّ لاهوت السود أكثر عدوانيّة وأكثر جذريّة (راديكاليّة) من اللاهوت الأفريقيّ؛ وذلك لأنّه نابع من غَيْرة مشتعلة على الإنجيل؛ ولأنّ عليه واجبًا هامًّا، وهو أن يُحدث تحوُّلًا عميقًا في قلب الإنسان الأسود، تحوُّلًا يُخرجه من غيبوبته ومن قبوله للعبوديّة وإجلاله للبيض. وعلى عاتق هذا اللاهوت

يقع عبء توعية الإنسان الأسود لضرورة قبول هذه المسؤوليّة المثيرة والمُلْزمة والمرتبطة بكونه إنسانًا بتمام معنى الكلمة: ألا وهي بلوغ شرف البنوّة الإلٰهيّة. وبالمثل، يتحرَّق هذا اللاهوت شوقًا إلى إيقاظ مشاعر الإنسان الأبيض ليعي إلى أيّ درجة من الانحطاط يصل به الأمر حين ينتقص من إنسانيّة السود. فمُهمّة لاهوت السود مزدوجة إذا: فهي تهدف إلى تحرير القاهر كما تبغي تحرير المقهور. ولا يمكن وصف هذا اللاهوت بالسذاجة، لأنّه لا يكتفي بالمطالبة بالتحرير الاقتصاديّ والسياسيّ فحسب، بل يفهم التحرير كعمليّة شاملة تتضمّن التحرُّر من جميع أنواع القهر التي تمنعنا من أن نصبح أبناء حقيقيِّين لله، بحسب قلبه هو.

وإذا عُدنا إلى ما قاله الأستاذ مبيتي، فإنّني لا أفهم إطلاقًا ما كتبه في مقاله السابق: «إنّ الناس في جنوب أفريقيا لا يحتاجون إلى لاهوت تحرير، بل يريدون الحرّيّة». فقياسًا على ذلك، يمكننا أن نقول - في «لاهوت الرجاء» أو أيّ لاهوت آخر - أنّ الناس لا يريدون «لاهوت رجاء» بل هم يريدون الرجاء! يرفض لاهوت السود أن يُقنع نفسه بالأوهام وبالعقيدة البائدة التي تتحدَّث عن السعادة التي سنحصل عليها بعد الموت في السماء، لأنّ هذه العقيدة تتناقض مع عقيدة التجسُّد التي يوجِّهها إلينا الإنجيل. فللاهوت السود معنى وجوديّ مُلِحٌّ، يبدو أنّه ينقص اللاهوت الأفريقيّ حتّى الآن لأنّه يميل إلى الهدوء، ويتّجه اتّجاهًا مبالغًا إلى ما يمكن أن أسمّيه «القلق الأنثروبولوجيّ».

وبصفتي مواطنًا من جنوب أفريقيا، أزعم أنّني أستطيع أن أتحدّث باسم السود عن لاهوت السود. وبما أنّي مواطن أفريقيّ أيضًا، أزعم أنّه يمكنني أن أتحدّث باسم الأفارقة، وأؤكّد أنّ لاهوت السود (الخاص بجنوب

أفريقيا) يُعتبر الوجه الخارجيّ الأكثر اتّساعًا ، وأنّ اللاهوت الأفريقيّ هو الدائرة الداخليّة الأصغر في سلسلة الدوائر المركزيّة في داخل هذا اللاهوت . لا أودّ الدخول في مجادلة عنيفة مع جُون مْبيتي ، والذي اعتبره صديقًا عزيزًا ولكنّني أهتمّ مع آخرين من جنوب أفريقيا بلاهوت السود الذي نعتبره ، في هذه المرحلة ، جزءًا لا يتجزّأ من اللاهوت الأفريقيّ .

وما اخشاه هو أنّ اللاهوت الأفريقيّ تنقصه الجرأة . وإنّي اعترف أنّه قام بعمله خير قيام حين تكلّم عن الروح الأفريقيّة المُمزّقة . ولكن إن نظرنا إلى هذا اللاهوت في مُجمله ، نرى أنّه لم يستطع أن يعطينا جوابًا شافيًا على حِزمة القضايا التي تغزو الإنسان الأفريقيّ المعاصر . كما بدا اللاهوت الأفريقيّ ، وكأنّه يشجّع الناس على مخاصمة الأنشطة الحيويّة ؛ فهو لم يعطِ النُصْح المناسب في مجال «لاهوت السلطة» في مواجهة الانقلابات السياسيّة التي حدثت وما زالت تحدث في أفريقيا ؛ وكذلك في مواجهة الحكومات العسكريّة ومشكلات الفقر والمرض وغيرها من القضايا الهامّة في عصرنا . ومن هنا ، فإنّي أعتقد أنّ لاهوت السود يمكنه أن يضيفَ الكثير إلى اللاهوت الأفريقيّ . فيمكن لاهوت السود أن يُذكّر اللاهوت الأفريقيّ بدعوته الأساسيّة ، وهي الاهتمام بالفقراء والمقهورين وبجميع الحاجات التي تهمّ أبناء أفريقيا الذين قد تحرّروا من مختلف أشكال العبوديّة ، حتّى يستطيع اكتشاف قيمتهم الحقيقيّة . فلقد تعرّضت قيمة الإنسان الأفريقيّ – في هذه الأيّام – إلى البتْر بسبب الصورة الدينيّة المَرَضيّة إلى جانب الضغوط السياسيّة التي التهمت جزءًا كبيرًا من حرّيّة الأفريقيّين الشخصيّة ، وذلك في غياب أدنى معارضة من جانب الكنيسة .

وقُصارى القول فعلى اللاهوت الأفريقيّ إعادة اكتشاف دعوته النبويّة ، ومن الواضح أنّ هذا اللاهوت لن يجد هذه الدعوة النبويّة إلّا إذا استطاع

القائمون عليه أن يمحوا بصورة جذريّة أثر الاستعمار في ذواتهم أوّلًا . فلقد تأثّر الكثيرون منّا تأثّرًا عميقًا باعتقاد مُؤدّاه أنّ قِيَم الغرب ومقولاته تحظى بالطابع الشموليّ . كما أنّنا نتمسّك بالمعايير التي أخذناها من عواصم العلم الغربيّة ، في كامبريدج وهارڤارد ومونپلييه ؛ حتّى في المجالات التي اتّضح فيها أنّ هذه المعايير لا تصلح لمؤسّساتنا على الإطلاق .

ونحن ما زلنا حتّى الآن نبحث عن تقدير الآخرين لنا واعترافهم بنا – وأقصد بالآخرين هنا الغرب ، كما أنّنا ما زلنا نبحث عن إرضاء الإنسان الأبيض فنتتبّع قواعده ومعاييره . وإلّا فلماذا نتضايق إذا قيل لنا إن صياغاتنا اللاهوتيّة ليست سيستماتيكيّة[٣] ؟ ولماذا نقع في حرج إن كان شكل لاهوتنا مسرحيًّا تتخلّله الأشعار والإيقاعات الراقصة كما هو الحال في كلّ أفريقيا ؟

علينا أن نطوّر من نظرتنا الى الإنسان لتصير نظرة الى الكيان الإنساني ككيان جماعي في مواجهة النزعة الفرديّة المفرطة الغربيّة ، ثم لتصير نظرتنا إلى الشخص متكاملة في حين أنّ الغربيّين يهتمّون بثُنائيّة النفس والجسد الهلّينيّة ؛ وأخيرًا لتصير نظرة إلى الواقع الروحيّ في حين أنّ اليأس قد سيطر على نفوس الآخرين بسبب ضحالة المادّيّة .

لترتفع هامة اللاهوت الأفريقيّ بما يولى الله المتسامي من عظمة ، بيد أنّ آخرين (في الغرب) يضيق بهم أن يتحدّثوا عن تسامي الله .

فإذا كان اللاهوت الأفريقيّ أمينًا لهويّته ، حقّق ما الإنسان الأفريقيّ وساهم مساهمة فعّالة في إنماء التراث المسيحيّ الذي ننتمي إليه جميعًا .

---

(٣) سيستماتيكيّ : بشكل منهجي منظّم .

لاهوت التحرير في أفريقيا*

دُعيتُ في خريف ١٩٧٦ لأكتب مُداخلة لهذا المؤتمر. ولو كنتُ قد كتبتها في هذا التاريخ، لربّما كنت فعلت ذلك بروح مجرّدة وأكاديميّة. أمّا الآن في ظلّ الظروف التي تعيشها بلادي، فقد أصبح مستحيلًا أن أكتب بتجرّد، وذلك لأكون صادقًا مع نفسي لا أقل. إنّني أكتب الآن في خريف عام ١٩٧٧، وقد لقي ستيف بيكو حتفه، من جرّاء التعذيب. وتجرّأ قاضي التحقيق في بريتوريا على أن يُعلن أن ستيف مات بسبب خلل خطير في المخّ، وبرّأ بالتالي المسؤول عن وفاته. إنّني أكتب في لحظة اتُّخذت فيها إجراءات أمنيّة في جمهوريّة جنوب أفريقيا: فقد حظّرت الدولة ثماني عشرة منظّمة، منها «اتّحاد الشعب الأسود» و«جمعيّة أولياء الأمور السود» و«المعهد المسيحي» وسيق العديد من الأشخاص إلى السجون

(*) حرّر ديزموند توتو هذا النصّ وعرضه على المؤتمر الخاصّ بجمعيّة لاهوتيّي العالم الثالث المسكونيّة الذي انعقد في أكرا (غانا) من ١٧ إلى ديسمبر ١٩٧٧. ونُشر هذاالنص باللغة الفرنسيّة في كتاب ضمّ أهمّ المداخلات التي ألقيت في هذا المؤتمر تحت عنوان: «**تحرير أم ملاءمة؟ سؤال يطرحه الأفريقيّ على نفسه**» *Libération ou adaptation? La théologie africaine s'interroge*, Paris, l'Harmattan, 1979, pp. 194 - 202.

أو طُردوا من البلاد بدون أوامر اعتقال قضائيّة، علمًا بأنّ هذه المنظّمات وهؤلاء الأشخاص كانوا يجتهدون في العمل على تحقيق حلٍّ سلميٍّ للأزمة الحاليّة. أكتب أيضًا بعد ما أُغلقت صحيفة **العالم** (The World) وهي أكبر صحيفة للسود في هذا البلد. أكتب بعد أن عاد فورستر إلى الحكم بأغلبيّة كبيرة، وقد أعلن فور فوزه أنّ سياسته لن تتغيّر قيد أنملة. أكتب بعد أن قام البوليس التابع لـ يان سميث بقتل أكثر من ألف مواطن – منهم النساء والأطفال – في موزمبيق بحجّة أنّهم إرهابيّون.

لو كنتُ كتبت بموضوعيّة وتجرُّد أكاديمي، لكان عرضي للأمور قد اختلف، ولنال إعجاب الكثيرين. ولكنّه، في المقابل، لفقد معناه اللاهوتيّ وأصبح مجرّد حديث تسليةٍ يتجاهل الواقع المُقلق الذي تعيشه مدننا.

ويتيح لنا هذا العرض أن نفهم مُكوّنات لاهوت التحرير وطبيعته. فقد وُلد هذا اللاهوت – أكثر من أي لاهوت آخر – في حضن آلام الإنسان وقلقه، ولقد رأى هذا اللاهوت النور لأنّ الشعب صرخ: «يا إلهي، حتّامَ؟» ... «لماذا يا ربّ؟» ... «الحديث عن الله». وبتعبير آخر، فإنّ لاهوت التحرير هو نوع من الحديث عن الله. فهو يحاول أن يبرّر الله وطرقه في عيون شعوب مسحوقة ومغلوبة على أمرها، لكنّه يدفع هذه الشعوب إلى العمل وإلى تحسين أحوالهم. إنّ الذين يعانون آلامًا شديدة، لا يشكّون – بوجه عامّ – في وجود الله، فهُم يعتقدون أنّ الله هو إله حيّ، وإله قويّ، وإله عدالة وخير. وهذا الايمان عينه هو الذي يبلبلهم ويقلقهم؛ فلو كانوا غير مؤمنين، لما بحثوا عن الله، ولما رأوا فيه أنّه صالح ومُحبّ وقويّ، ولوفّروا على أنفسهم أسئلة كثيرة، ولكان ألمهم عنصرًا عاديًّا في وسط سائر عناصر واقع صعب ولكن غير قابل للتغيير.

إنّ أيّ «لاهوت تحرير» يُولَد من محاولة لفهم الآلام التي يعانيها مَن هم ضحايا القهر والاستغلال المنظَّم، ومَن يُفرَض عليه العيش في غربة، ومَن يُعامَلون معاملة الأشياء لا معاملة البشر المخلوقين على صورة الله والمعذَّبين مع المسيح والمقدَّسين بفعل الروح القدس.

هكذا ظهر إلى الوجود «اللاهوت الأسود»، والذي نعتبره في أفريقيا لاهوتًا للتحرير بتمام معنى الكلمة. وينمو هذا اللاهوت خصوصًا في جنوب أفريقيا حيث نزعت العُنصريّة إنسانيّة السود، حتّى إنّها حوّلتهم إلى مخلوقات لا تَمُتّ إلى البشر بصلة؛ فشكّوا في أنفسهم وصدّقوا مقولات قاهريهم البيض.

إنّ اللاهوت الأسود - بصفته لاهوت تحرير - يُعتبر من الآن جزءًا لا يتجزّأ من معركتنا في سبيل خلاص الشعب؛ ولهذا السبب، حرّمت الدولة تداول هذا اللاهوت الذي يستلهم الإنجيل والذي يريد أن يوقظ عند الإنسان الأسود معنى كرامته الإنسانيّة الفردية كابن لله.

وهناك عاملان أساسيّان وراء تطوّر اللاهوت الأسود في جنوب أفريقيا. أمّا العامل الأوّل فهو اللاهوت الأسود الآتي من أمريكا الشماليّة، المتضمّن كتابات السود وترانيمهم الروحيّة التي شجّعت الكثيرين؛ ثم تبلور صراحة في أيّام عبوديّتهم العصيبة في الحملة المُطالِبة بالحقوق المدنيّة.

وأمّا العامل الثاني فهو الاستقلال الذي حصلت عليه البلاد الأفريقيّة من نير الاستعمار والذي دفع تطوّر هذا اللاهوت دفعة قويّة.

ويأخذ لاهوت التحرير بعين الاعتبار مظاهر الواقع الاجتماعيّة المختلفة؛ وهو لا يُحدِّد نوعيّة الحياة الزمنيّة فحسب بل نوعيّة الحياة الدينيّة أيضًا؛ وعليه، فإنّ عُلماءَنا في اللاهوت مقتنعون بأنّ الازدواج القائم بين ما هو

دينيّ وما هو دنيويّ يناقض الإيمان بعقيدة التجسُّد، بل يعتبرون هذه النظرة الازدواجيّة غير دينيّة بالمرّة.

طبيعة لاهوت التحرير وأسلوبه

كان العبرانيُّون المنفيُّون إلى بابل مكتئبين وهامدين، لأنّ إلٰههم بدا لهم أضعف من الآلهة البابليّة. وكانت خيبة أملهم عظيمة؛ فبحسب عقليّة هذا الزمن، كانت الهزيمة، التي تلحق بشعب، تعني إلحاق الهزيمة بإلٰههم الوطنيّ أمام آلهة الأعداء؛ إذ كانت التماثيلُ والمعابدُ المكرّسة للآلهة البابليّة المنتصرة تُحيط بالمسبيِّين من اليهود في بابل. ولم يكن لليهود من سببٍ إذًا للافتخار بـ «يهوه».

وفي هذه اللحظة التاريخيّة المأساويّة التي كان يعيشها اليهود، قامت مجموعة صغيرة من المدرسة الكهنوتيّة اليهوديّة بتأليف قصيدة شعريّة رائعة في تسبيح الإلٰه الخالق؛ وهذه القصيدة نجدها في سفر التكوين (تك ١ إلى ٢/٤).

ولا نحطُّ من شأن هذا النصّ اللاهوتيّ الرائع، إذا قلنا بأنّه منشورٌ ذو صبغة دعائيّة لاهوتيّة كان هدفه إحياء الإيمان عند اليهود المنفيِّين في بابل: فيهوه - كما يظهر في نشيد الخلق هذا - إلٰه حيّ متعالٍ حتّى إن كلمة واحدة منه تكفي ليخلق الكون كلّه؛ وذلك على نقيض نصّ الخلق عند البابليِّين الذي يرى أنّ العالم هو مُحصّلة لصراع دامٍ بين الإلٰهين مَرْدوك ورتيامات.

ويعبِّر هذا المثل تعبيرًا مذهلًا عن الطريقة التي يصيغ بها الكتاب المقدّس النماذج اللاهوتيّة. فهو يصيغ اللاهوت - في أغلب الأحيان -

ليُجيب عن مُعضلات نشأت في مكان مُعيّن وزمن معيّن. ولا ينشأ أبدًا لاهوت الكتاب المقدّس من فراغ، كما أنّه ليس وليد تأمّلات شخص يعيش في «عُزلة عقليّة» داخل برج عاجيّ. ويمكن التدليل على ذلك من خلال نصوص كثيرة؛ فعلى سبيل المثال، حين نقرأ بعض التعاليم المتشدّدة في مثل عزرا ونحميا - والتي كانت ضروريّة في ذلك الحين - نجدها تتحدَّث عن الشعب الإسرائيليّ بصفته «الشعب المختار» من بين جميع الشعوب، متجاهلة تجاهُلًا تامًّا شموليّة الخلاص التي نجدها في وعد الله لإبراهيم أبي المؤمنين (تكوين ١٢/١ - ٣). وعلى نقيض ذلك، نجد نصوصًا أخرى تردُّ عليها، مثل سفرَي راعوث ويونان اللذين يفتحان باب الخلاص على مصراعَيْه لجميع الشعوب. وفي العهد الجديد، حين يتمسّك اليهود الذين تنصّروا بضرورة الختان لكلٍّ من يريد الدخول إلى المسيحيّة، يُواجههم بولس الرسول في رسالته إلى أهل غلاطية. إنّ أغلب نصوص الكتاب المقدّس يمكن اعتبارها «نصوص مناسبات»، لأنّها نبعت من ظروف محدَّدة كانت تتطلّب حلولًا محدّدة. إنّ اللاهوت الذي نجده في الكتاب المقدّس هو لاهوت «ملتزم» وبالتالي وجوديّ (أيّ أنّه يختصّ بوجود جماعة خاصّة ومعيَّنة من المؤمنين).

ويتمسّك لاهوت التحرير - أمينًا - بهذه الأمثلة الكتابيّة، إذ يتحدّث لاهوت التحرير عن واقع مُعيّن هو واقع القهر السياسيّ والظلم الاجتماعيّ والاستغلال الاقتصاديّ، واقع يجثُم بثقله على جماعة مسيحيّة معيّنة، ويبغي هذا اللاهوت أن يأخذ في الاعتبار آلام هؤلاء الناس، رابطًا هذه الآلام بما فعله الله وما يفعله وما سيفعله. إنّ مرجعيّة هذا اللاهوت الأساسيّة هي «إنسان يسوع»: كلمة الله الوحيد، وهو يبحث في الإله الذي

نقصده، وعمّا إذا كان من الممكن أن نظلّ على الإيمان به دون أن نخون ضميرنا. إنّ ما يميّز لاهوت التحرير عن غيره هو اعترافه بأنّه لا يوجد حديث لاهوتيّ من دون أن يتغيّر مع الزمن (قاطع ودائم)؛ فكلُّ حديث لاهوتيّ هو مؤقَّت، ولا يصلح لجميع المواقف؛ وعلى كل حديث لاهوتيّ أن يسعى ليحظى بقبولِه أوّلًا كونه محدودًا مكانيًّا وزمنيًّا.

وفي الماضي ثار جدل كبير في الكنيسة حول طريقة صياغة اللاهوت، حيث كان أيُّ حديث لاهوتيّ محدود بظروف نشأته الزمانيّة والمكانيّة يُعتبر حديثًا مطلقًا. كما أنّ الكتاب المقدّس نفسه يُعتبر مثلًا على تعدّديّة المواقف اللاهوتيّة حيث يتّسع ليشمل بين ضفّتيه تيّارات لاهوتيّة مختلفة. وهذه التيّارات تارة ما تكمل بعضها بعضًا، وتارة ما تنفي بعضها بعضًا. إن لاهوت التحرير لا يريد إلّا أن يكون «واحدًا» من ضمن هذه التعبيرات الغنيّة والمختلفة الواحد عن الآخر، فهو فخور بمحدوديّته، وعلى استعداد – حين تكتمل رسالته – أن يدع المكان لتيّارات لاهوتيّة لاحقة. والملاحَظ أنّه ما زالت هناك تيّارت لاهوتيّة كثيرة – فقدت أهمّيّتها وانتهى عمرها الافتراضيّ – تُستخدم في غير محلِّها. وعلينا ألّا نتردّد في إزالة التراب الذي أهاله الدهر على صيغنا اللاهوتيّة بالتخلّص من مثل هذه التيّارات.

لا بد من أن تتعدّد الصيغ اللاهوتيّة، لأنّ البشر يدركون الله والأمور الإلٰهيّة إدراكًا يختلف من جماعة إلى أخرى، ويتحدّثون عنها بلغات متعدّدة. وإذا كان اللاهوت، في نشأته وفي مضمونه، يتعلّق بظروف محدّدة، ويعالج أمورًا خاصّة بهذه الظروف أو تلك، إلّا أنّ هذه الممارسة اللاهوتيّة تتغيّر مع تغيّر الظروف. وسيصبح الكثير من الإجابات المطروحة اليوم عديمة الفائدة غدًا، لأنّ الأسئلة التي ستُطرح لن تكون بالضرورة هي

الأسئلة عينها. وهذا لا ينفي أنّه بإمكان الإشكاليّات الماضية والإجابات عنها أن تزيدنًا نورًا: فمن غير المعقول الانطلاق من نقطة الصفر.

إنّ فهمنا للإنجيل والوحي الإلٰهي في تغيّر دائم ودؤوب، ومن صيغ هذا المنطلق تنشأ الصياغات اللاهوتيّة الجديدة.

اطار لاهوت التحرير

بسبب اختلاف الظروف التي ينبع منها كلٌّ حديث لاهوتيّ، تتناسب بعض نصوص الكتاب المقدّس مع بعض المواقف أكثر منها مع بعضها الآخر، حيث يعرض علينا إنجيل المسيح يسوع - في عظمته - وجوهًا لا حصر لها.

أوَليست النصوص التي تتناسب مع موقف دولة مثل أيرلندا الممزّقة بسبب الحقد هي تلك التي تحضّ على المصالحة؟ أمّا ضحايا القهر والظلم، فمن المهمّ أن يعوا أنّ إلٰه إيمانهم هو الإلٰه المحرِّر، إلٰه الخروج، الذي قاد شعبنا مُستعبَدًا من الرقّ إلى الحرّيّة المجيدة.

إنّ الله يساعد المُضطهَد دائمًا. هذا هو الإعلان الكتابيّ الذي على الشعوب المقهورة أن تُعيد اكتشافه. وإذ يمنحهم الله هذه النعمة، ويتحنّن عليهم، فليس ذلك لأنّهم أكثر فضيلة من قاهريهم، بل لأنّهم مقهورون فحسب. هذا هو الله، ولهذا فعن صرخة التساؤل المضطربة التي تصرخها شعوبنا: «مع مَن يقف الله؟» نجيب بكلّ ثقة: «إنّ الله يقف إلى جانبكم!»، لا كما يقف إلٰه محلّي، مستعدٌّ دائمًا لتبرير شعبه، بل بصفته إلٰهًا مخلّصًا مُحرِّرًا، وفي الوقت نفسه على استعداد لأن يقاضي ذاك الشعب الذي يخلّصه. إنّ الله مُحبٌّ وكلّه رحمة وحنان، ولكنه في

الوقت نفسه القدُّوس الذي يُطالب بالقداسة مَن يخلِّصهم. وإن كان الله يخلّص الإنسان من موقفٍ يؤدّي إلى الهلاك، فلأنّه يريد أن يهب هذا الإنسان الحياة الحقيقيّة. وعلى الذين أنقذهم أن يصبحوا بدورهم مُنقذين وخدّامًا للآخرين. وإن كان الله قد خلّصهم من العبوديّة والقهر، فليس هذا الخلاص، في نهاية الأمر، من أجل ازدهارهم ومجدهم الشخصيّين، بل من أجل أن يُعلنوا للآخرين بكل يقين أنّ الله مُخلِّص.

وأخيرًا، يحرّر الله المقهورين لحبّه لقاهريهم أيضًا، وقد قيل الكثير في أنّ القهر والظُلم يُجرِّدان من الإنسانيّة بقدر ما يُجرِّد ضحاياه منها. ويستهدف لاهوتنا تحرير القاهرين بقدر ما يستهدف تحرير المقهورين. إنّ هذه التوجّهات أصبحت أمورًا شبه بديهيّة لكثرة ترديدها؛ وعلى الرغم من ذلك فإنها واقع بيننا. وعلى سبيل المثال، فقد سمح جيمي كروجر (Jimmy Kruger) – وزير العدل والداخليّة في جنوب أفريقيا – لنفسه أن يقول بالحرف الواحد حين مات ستيف بيكو: «إنّ موته لا يؤثّر فيّ». فما الذي حدث لإنسانيّة هذا الوزير كي يتحدّث بهذا الأسلوب الذي يفتقد أبسط شعور تجاه أخ له في الإنسانيّة؟

الله في نظر لاهوت التحرير

يبغي لاهوت التحرير أن يوضِّح – بما لا يدع مجالًا للشكّ – الرغبة الإلٰهيّة العارمة في تحرير المقهورين والمساكين؛ ولذلك فقد ركّز تركيزًا خاصًا على موضوع الخروج في الكتاب المقدّس. إلّا أنّ ذلك لا يعني أنّه تجاهل بقيّة التعاليم المسيحيّة.

كان من المهمّ أن يكتشف هؤلاء الرازحين، تحت نير نظام فاسد، أنّ الله «المحرِّر» هو الإله «القدير» أيضًا، «السيّد المطلق» على العالمين. فبالرغم

من الواقع الذي يبدو مناقضًا لذلك ، وبالرغم من الشرّ الظالم الذي يظهر وكأنّه المهيمن على العالم ، فليس الله عاجزًا ، بل هو السيّد الأوحد الذي يتحدّث عنه كتاب دانيال وسفر الرؤيا للقدّيس يوحنّا ؛ ولا حدث مخفيّ عليه . ليس إلٰهنا كآلهة البَعْل الذين اختلط أمرهم على إيليّا النبيّ في العهد القديم . فإلٰهنا لا ينام ، ولم يتركنا لدواعي سفره ، كما أنّه لا يحجب نظره عنّا لانشغاله بشيء آخر ؛ بل إنّ صيحاتنا لا تصعد إلى سماء فارغة ، ولا تلقى آذانًا صمّاء أو غير مُصغية . إنّ الله قد سمعَ صراخنا ، ورأى مذلّتنا ، وجاء ليخلّصنا . إنّ له سلطانًا يستطيع به أن يخلّصنا ، ويجب علينا ألّا نكلّ عن إعلان ذلك لشعب جنوب أفريقيا ، لأنه بعد الأحداث التي ذكرتُها في بداية حديثي ، فإن شعبنا خائر القوى بسبب تلك الآلام ، ومُكبَّل بشعور الإحباط ، وعدم القدرة ؛ وعلينا أن نعلن له - بكلٍّ ما يتطلّبه الأمر من قوّة وبكلٍّ وضوح - أنّ الله هو إلٰه الرجاء ؛ فهذا إعلان أساسيّ ؛ «عزّوا ، عزّوا شعبي ، يقول الربّ ، كلّموه بحنان» . . . ففي هذه الأيّام حيث لا تظهر أسباب للرجاء فعلى الكنيسة أن تُقوّي وتساند بلا كلل ولا ملل إيمان شعب الله وثقته في إلٰهه.

إن لاهوت التحرير يعلن عن إلٰه «حنون» يختلف عن إلٰه أرسطو «المحرِّك الأوّل الذي لا يُحرَّك» . ويؤكّد الكتاب المقدّس لنا أنّ الله يتصرّف تجاه شعبه كما تتصرّف أمٌّ بكلّ حنانها تجاه ابنها ؛ فالله يحبّنا وإن كانت «رقابنا غليظة» ، وهو ينتظرنا كي نرجع إليه كما كان الأب ينتظر ابنه في مَثَل «الابن الضالّ» ، إنّه كالدجاجة التي تحمي فراخها تحت جناحيها . ولقد بكى الله علينا ، بكى في شخص ابنه على أورشليم مدينته المحبوبة . نعم إنّ الله يبكي معنا وقد تألّم حتى الموت في شخص ابنه يسوع المسيح .

إنّ مَن يسخرون من لاهوت التحرير يُعتبرون أصحابه جماعةً من السُذّج الذين يتوهّمون أن بعض الإصلاحات السياسيّة والاقتصاديّة ستُفضي بالبشر حتمًا إلى العصر الذهبي. إلّا أنّ الخبرة الإنسانيّة تشير إلى عكس ذلك؛ وهذا ما فهمه لاهوتيّو التحرير الذين يعلمون أنّ القاهر القديم سرعان ما يُستبدل بقاهر جديد وأنّ ضحايا الأمس سرعان ما يصبحون ظالمي اليوم، ويعلمون أيضًا أنّ ضعف الطبيعة البشريّة يقاوم قصد الله في التاريخ البشريّ، ويقبلون بالعقيدة التقليديّة الخاصّة بالخطيئة الأصليّة. إلّا أنّهم رغم ذلك كلّه يؤمنون بأنّ الله أعان طبيعة الإنسان الضعيفة بحياة يسوع وفدائه.

تحدّي لاهوت التحرير

ليس لاهوت التحرير مجرّد تمرينات ذهنيّة أو هذيان فكريّ فالقضايا التي يطرحها قضايا حياة أو موت لمن يتوجّه إليهم هذا اللاهوت؛ فهو يحاول أن يُعيد إلى ضحايا القهر معنى إنسانيّتهم المفقودة، كما يحاول أن يُعيد إليهم قيمتهم الشخصيّة التي منحهم الله إيّاها، وأن يُزيل ما خلّفته في نفوسهم سنون طويلة من القهر من إحساسهم بعدم قيمة وشعورهم بحقد أنفسهم حينئذ. يستطيع هؤلاء العبيد – حين يواجهون التزامات الحرّيّة المستعادة – ألّا يأسفوا على «البصل الذي كانوا يأكلونه في مصر»، كما فعل العبرانيّون مع موسى بعد الخروج. وهكذا يساعدهم لاهوت التحرير على الدخول في ميراث أبناء الله المجيد، هذا الإله الذي يريدهم أحرارًا حقًّا.

إنّ لاهوت التحرير يتوجّه إلى المقهورين كي لا يدعوا أنفسهم فريسة للحقد والمرارة والشفقة على أنفسهم، وهي أحاسيس لا تقلّ خطرًا عن الاضطهاد والقهر. إنّ إنجيل المسيح، الذي يدعو هؤلاء الناس إلى الحرّيّة، يدعوهم إلى الغفران أيضًا لمن أساء إليهم، غفرانًا لا حدّ له، لا لكي يستسلموا استسلامًا سلبيًّا للألم، بل لكي يشاركوا في عمل الخلاص الإلٰهيّ. حينئذ يقلب المقهورون الموقف رأسًا على عقب، ويُكملون في أجسادهم ما نقص من آلام المسيح، كما قال بولس الرسول.

إنّ لاهوت التحرير يقبل برحابة صدر أن يُوجَّه إليه النقد بشرط أن يكون نقدًا موضوعيًّا بعيدًا عن الأفكار المسبقة، وعن العقلانيّة المُزيّفة؛ فهذا اللاهوت يريد أن يُعتَرَف به بصفته تيّارًا من التيّارات اللاهوتيّة النابعة من الإرث الكنسيّ المتعدّد الوجوه، وقد انخرط لاهوتيّو التحرير في مُهمّة عاجلة! وهم لا ينتظرون شهادة صلاحيّة – من الغرب ومِمّن يُماثِلُهُ – تكون بمثابة اعتراف بلاهوت التحرير.

إنّ المعايير التي نرجو تطبيقها على لاهوتنا تختلف اختلافًا كلّيًّا عن معايير الغرب: هل ينبع هذا اللاهوت من الكتاب المقدّس؟ هل يتّفق مع إنجيل المسيح؟ هل به تناقض داخليّ؟ هل هو مؤثّر وفعّال؟ وإن أظهرت الإجابة عن هذه الأسئلة عدم استيفاء لاهوت التحرير لأنّه لم يستطع أن يعطي أجوبة شافية لشعب الله.

إنّ لاهوت التحرير جزءٌ لا يتجزّأ من كفاح السود لينالوا حرّيّتهم، ويجتهد في مساعدتهم على أن يفخروا بإنسانيّتهم، فلا يخجلون من النظر الى الآخرين في أعينهم بل يتعاملون معهم ندًّا لندّ، ولا يعتبرون أنفسهم مُضطرّين إلى الاعتذار بسبب أنّ لون بشرتهم أسود.

كثيرًا ما يُوجَّه رجال الدّين اتّهامًا للاهوتيّين - الذين يطالبون بالعدالة والمشاركة في خيرات الأرض - بأنّهم يتحدّثون في السياسة، وبأنَّ روح الصلاة تنقصهم، إنّ هذا النقد لا يخلو من الوقاحة، لأنّه يفترض أن هؤلاء اللاهوتيّين لا يصلّون، في حين أنّهم يلتقون يسوع المسيح في الصلاة والسكون وفي درس الكتاب المقدّس وممارسة الأسرار الكنسيّة؛ بل إنّ هذا اللقاء هو الذي يدفع هؤلاء اللاهوتيّين إلى الكلام بهذه اللهجة. والقيام بهذه الأفعال فإنّ ما يُلهمنا هو الإيمان لا السياسة.

إن لاهوت التحرير يدعو سائر اللاهوتيّين إلى أن يتساءلوا هل هم يستندون إلى الكتاب المقدّس - بالمعنى الذي شرحناه سابقًا - وهل هم أمناء لسر تجسُّد المسيح، وأن يأخذوا في الاعتبار الإنسان، كُلّ الإنسان بنفسه وروحه وجسده. إنّه يدعوهم إلى الفخر ببُطلان صيغهم اللاهوتيّة، إذ يدّعون صلاحيّتها الدائمة والشاملة، في أنّ ذلك لا يصحُّ إطلاقه على الإنجيل وحده.

إنّ لاهوت التحرير يحضّ الكنائس في كلِّ مكان على أن تتيقّظ لمهمّتها النبويّة، فتتكلّم بلسان مَن لا صوت لهم ومَن لا يقوون على مُناهضة الظلم والطغيان والفساد والشرّ بمفردهم. لعلّها دعوة إلى الاستشهاد. ولكن إن كان الله معنا فمَن علينا؟

الباب الثالث

بين لاهوت التحرير الأمريكيّ - اللاتينيّ ولاهوت التحرير الأفريقيّ

إنّ كلمة «تحرير» تتردّد بقوّة بين المُصطلحات المُستخدمة في علم اللاهوت الأفريقيّ «الحاليّ»، بجانب كلمتين أخريَين وهما «الوحدة» و«الاستمراريّة». فما معنى «التحرير» هذا؟

إنّ «التحرير» هو في صُلب الوحي اليهوديّ - المسيحيّ؛ فقد اكتسبه المسيح لكلّ البشر بثمنٍ غالٍ، وهو آلامه وموته فقيامته. ولكن علينا أن نعرف ما معنى هذا التحرير في واقعِ كلِّ إنسان؟

يرى بعض المتسرّعين أنّ اللاهوت الأفريقيّ ليس إلّا لاهوت التحرير الذي يخصّ السود في الولايات المتّحدة الأمريكيّة؛ وأمّا نحن فنرى أنّ هذه قراءة خاطئة للواقع الذي يعيشه الأفارقة؛ فلئن كان اللاهوتيّون الأفارقة يتعاطفون تعاطفًا مع كلٍّ من يواجه مختلف أنواع القهر السياسيّ والاقتصاديّ والاجتماعيّ، إلّا أنّ لهم وجهة نظر أخرى.

وعلى الرغم من ذلك، فعلينا أن نسجّل أنّ موضوع التحرير في أفريقيا لا ينحصر في الظروف السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة فحسب، بل يزداد اللاهوتيّون الأفارقة حديثًا عمّا يسمّونه بـ «الفقر الأنثروبولوجيّ»، هذا الفقر الجذريّ الذي يختلف عن الفقر الماديّ. فالفقر الذي يتحدّثون عنه هو الفقر الذي يجرّد الكائن البشريّ لا من ممتلكاته فحسب، بل كل ممّا يشكّل كيانه وجوهره أيضًا. وبعبارة أخرى، ما يجرّده من شخصيّته

وتاريخه وجذوره الأثنولوجيّة، من لغته الأصليّة وثقافته، من إيمانه وقدرته الخلّاقة، من كرامته، وطموحاته، وحقّه في الكلام . . .

ولكي نفهم الإطار الذي يتمّ فيه التحرير في أفريقيا فهمًا موضوعيًّا تاريخيًّا. فمن المفيد أن نتوقّف عند النقاط الاربع التالية: العلوم الإنسانيّة، التحليل الماركسيّ، التحرير، والفقر الأنثروپولوجيّ.

العلوم الإنسانيّة

إنّ اللاهوتيّين الأفارقة مقتنعون الآن - أكثر منهم في أي وقت مضى - بأهمّيّة العلوم الإنسانيّة كأداة للتحليل لا يمكن الاستغناء عنها في علم اللاهوت. فإنّ تلك العلوم تسمح بعرض الثقافة الأفريقيّة وأنثروپولوجيّتها، وعلم الكون الخاص بها. ومن غير الممكن البحث في الوضع الأفريقيّ بوجه حادّ، بدون الإلمام ببعض هذه العلوم واتقانها، مثل علم الاجتماع، علم التاريخ، الفنون، الجغرافيا، تاريخ الأديان، علم النفس والتحليل النفسيّ، علم السياسة .. إلخ.

ولا تقدر المؤسّسات الخاصّة بالتكوين اللاهوتيّ في أفريقيا أن تتهرّب من هذا المطلب الأساسيّ؛ فعليها أن تضع العلوم الإنسانيّة في صُلب البرامج التكوينيّة. ويمكن القول بأنّ اللاهوتيّ الأفريقيّ - إن تغاضى عن هذه الأسس - يجد نفسه عاجزًا عن تحليل المجتمع الأفريقيّ المعقّد، ومحيطه الزمانيّ المكانيّ، واهتمامات الإنسان ألافريقيّ الواقعيّة، ذلك الإنسان المعنيّ الوحيد بإنجيل يسوع المسيح.

ويجب الاعتراف أوّلًا بأنّ الدراسة المطلوبة وعرة المسالك فهي لا تنحصر في استهلاك التكنولوجيا الغربيّة وليدة هذه العلوم، أو استخدام

مُخطّطات وتحليلات غربيّة ولصقها بالمجتمعات الأفريقيّة ، فعلوم الإنسان مرتبطة بتصوُّر اللاهوتيّ عن الإنسان وعن العالم . ويختلف درس التحليل النفسي من زاوية مسيحيّة عن درسه من زاوية فرويد ويونج . كما أنّ وجوديّة جبريل مارسيل ليست وجوديّة كارل ياسبرز أو وجوديّة جان پول سارتر . إنّ كيفيّة درس اللاهوتيّ الأفريقيّ لكلّ ذلك تتطلّب روحًا نقديّة داخليّة وخارجيّة ، كما أنّها تتطلّب منه روح الابداع ؛ فعلينا أن ندرس علوم الإنسان بعين أفريقيّة .

إنّ الإطار الأفريقيّ مليء بالهموم المعقّدة ؛ فهو يرتبط كُلّ الارتباط بماضيه ، يتمزّق تمزُّقًا مأساويًّا في حاضره ، وينظر إلى مستقبله نظرة تؤدِّي به إلى الدُّوار . فعلى أيّة مُقاربة موضوعيّة لدرس الظروف الأفريقيّة أن تأخذ في الاعتبار أبعاد الماضي والحاضر والمستقبل الثلاثة . ونُذكِّر بأنّ الأجيال الجديدة من الشباب الأفريقيّ مشتّتة الاتّجاه ؛ ولن يملّ المعنيّ بشؤون أفريقيا من تذكير الشباب أن يعاودوا اكتشاف قارتهم ، حيث الغالبيّة العظمى من الشعب ، اكتشاف أفريقيا الأمس واليوم ، أفريقيا الريف والمدينة .

التحليل الماركسيّ

إنّ علم اللاهوت الأفريقيّ جزءٌ لا يتجزّأ من لاهوت العالم الثالث ، ذلك اللاهوت المُسمّى «لاهوت المواقف» ، والذي ينبع من مكان وزمان معيّنَيْن ويهتم بتحليل البيئة التي ينبت فيها . وكثيرًا ما وُصف هذا اللاهوت بأنّه ماركسيّ . ولئن كان هذا الوصف صائبًا في نظرة اللاهوت الأمريكيّ - اللاتينيّ ، إلّا أنّه غير صائب في نظرة اللاهوت الأفريقيّ . ذلك لأنّ التحليل الماركسيّ يمكن تطبيقه على المجتمع البرجوازيّ الرأسماليّ الغربيّ

الذي ينتمي إليه روّاد لاهوت التحرير الأمريكيّ - اللاتينيّ؛ فقد أظهروا ذلك في تحليلهم للإمبرياليّة الشماليّة وللقهر الرأسماليّ.

وأمّا في أفريقيا، فإنّ اللاهوتيّين مهتمّون بوجه خاص بقضيّة «الاغتراب الثقافي» أو ما يُسمّى بالفرنسيّة (annihilation culturelle) أي التلاشي الثقافيّ. وأمّا مقولات الاغتراب الماركسيّة فلا تنطبق بوجه كافٍ على مجتمع الإنسان الأفريقيّ. إنّ العبوديّة والسيطرة الاستعماريّة والعنصريّة، التي تجسّدت في مؤسّسات قائمة، جرّدت الشعب الأفريقيّ من كلِّ شيء، وجعلته في وضع لا يُمكن قياسه بوضع الطبقات الكادحة (البروليتياريّة) ولما عظُم استغلالها في سائر القارّات. إنّ كلمة «اغتراب» لا تصف وصفًا أمينًا هذا الوضع المحزن؛ فوجب ابتكار مصطلح جديد يصف الوضع ألافريقيّ وهو «التلاشي». فيحاول هذا المصطلح أن يُبيِّن ما تعانيه أفريقيا من مقصد حقيقيّ في السيطرة والاستغلال، من نفي لهُويّة الأفريقيّ الإنسانيّة، ونفي لثقافته. وهناك كتابات لا حصر لها في عداوة الاستعمار والإمبرياليّة تشهد على هذا الوضع.

وبالرغم من ذلك، فهناك شيء خطير يتفوّه به مَن يقعون تحت الضغوط العقلانيّة أو يجحدون بشخصيّاتهم وبأنفسهم، ومفاده أن لا شيء يحدث من هذا القبيل في أفريقيا، وأنّ الحديث عن «النفي» الثقافي ونفي الهويّة الأفريقيّة حديث قديم ومُعاد.

إنّ الاستعمار الجديد والعُنصريّة الجديدة، اللذين كثيرًا ما تمّت إدانتهما، يُشكِّلان تهديدًا بارزًا في كلّ اتّجاه؛ وكذلك الحديث عن الاشتراكيّة المادّيّة وهي نمط جديد من القضاء على الثقافة والهويّة الأفريقيّة. ومن الغريب أنّ جميع الحضارات تُظهر نحو أفريقيا الأمبرياليّة نفسها،

فللجميع أنماط وأشكال يقترحونها على سكّان أفريقيا؛ وهم لا يرون في القارّة السوداء إلّا المواد الأوّلية، لكنّ أكثرها استغلالًا هو الإنسان الأفريقيّ.

ولقد استخدم كارل ماركس مقولة هيجل في «الاغتراب»، كما استخدم من فلسفة التاريخ الهيجليّة في الحضارات المختلفة مُصطلح «نمط الإنتاج». ولكن مع الأسف، فإنّ أفريقيا غير مذكورة عند هيجل من بين مختلف الحضارات؛ وبالتالي فمن الطبيعيّ ألّا يرد عند ماركس «نمط إنتاج أفريقيّ». وفي كتابَين ألّفهما الشيخ أنتا ديُوپْ (Cheikh Anta Diop)، أوّلهما بعنوان «**أفريقيا في العصور القديمة، أفريقيا السوداء، ومصر الفرعونيّة**»[1]، وثانيهما «**حضارة أم بربريّة؟**»[2]، أوضح هذا المفكِّر أنّ مقولة «نمط الإنتاج الأسيويّ» لا تنطبق على مصر الفرعونيّة ولا على الحضارات السوداء القديمة»؛ وهذا يعني أنّ على الأفريقيّين أنفسهم أن يقوموا بتحليل مجتمعاتهم وتاريخها. فالآخرون لم يقوموا بهذا العمل بدلًا منهم ولن يقوموا به. إنّ الموقف الناجم عن إرث العبوديّة، وعن الاستعمار والإمپرياليّات والعنصريّة والرأسماليّة الجدد التي يمارسها الأفارقة بأنفسهم على إخوتهم، وكذلك ظهور الصراع الطبقيّ في أفريقيا... إنّ جميع هذه القضايا ليست لها قوالب مسبقة ولا لها دراسات؛ فأفريقيا غير واردة في خريطة الباحثين، وإن وردت فذِكرُها عابر. وحينما يتحدّث الناس عن لاهوت العالم الثالث، وعن التوجُّهات الاشتراكيّة، يمكنهم أن يقولوا بأنّ

---

(١) *L'Afrique dans l'Antiquité. L'Afrique noire et l'Egypte pharaonique.*

(٢) *Civilisation ou Barbarie?*

على أفريقيا أن تبتكر اشتراكيّتها. وتجربة مثل تجربة نيريري (Nyerere)[٣] في تنزانيا خير دليل على ذلك الابتكار.

مُصطلح «التحرير» وأصالته

كثيرًا ما يتحدّث الناس عن لاهوت العالم الثالث بصفته لاهوتًا للتحرير. ومع ذلك فمن المهمّ أن نُبيِّن خصوصيّة لاهوت التحرير الأفريقيّ. وإن ظهر لاهوت التحرير في أمريكا اللاتينيّة إلى الوجود في الستينات، فإنّه ظهر في أفريقيا قبل ذلك.

وفي أمريكا اللاتينيّة نبع «لاهوت التحرير» من مصدرَيْن أساسيّين:

الأوّل هو كونه ردّ فعل ثلاثيًا: ردّ فعل على فشل سياسة التنمية الاقتصاديّة التي انتهجتها تلك الدول المسمّاة Desarollisme[٤]؛ ثم ردّ فعل على الهيمنة الرأسماليّة والأمپرياليّة الخاصّة بالولايات المتّحدة الأمريكيّة التي سبّبت توليد التخلُّف الاقتصادي في القارة اللاتينيّة؛ وأخيرًا ردّ فعل على وقاحة المدارس اللاهوتيّة الغربيّة البعيدة عن مشاكل القارّة الأمريكيّة - اللاتينيّة. وأمّا المصدر الثاني الذي نبع منه لاهوت التحرير الأمريكيّ اللاتينيّ، فهو قراءة مُعيّنة للكتاب المقدّس، ولاسيّما العهد الجديد منه، قراءة تحريريّة.

وبقُصارى العبارة، فإن للاهوت أمريكا اللاتينيّة خصوصيّته وظروفه الجغرافيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة المختلفة عنها في أفريقيا.

(٣) تجربة تنمويّة قام بها جوليوس نيريري الذي كان رئيسًا لتنزانيا.

(٤) تعني كلمة Desarollo الإسپانيّة التنمية والتطوُّر.

وأمّا لاهوت التحرير الأفريقيّ، فقد سبق - إلى حدٍّ ما - لاهوت التحرير الأمريكيّ - اللاتينيّ. وكانت ثمار اللاهوت الأفريقيّ الأولى بروز «الكنائس المستقلّة»؛ ففي جنوب أفريقيا، ظهرت بشائره الأولى حيث تأسّست كنائس «أثيوبيّة» منذ نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين؛ وأمّا في زائير وفي الكنغو برازافيل فقد ظهر ما عُرف بـ «الكيمبانجيزم» (Kimbanguisme) والمَاتْسُوانيزم (Matsuanisme) بعد الحرب العالميّة الأولى. ومنذ ذلك الحين ظهرت في أغلب دول أفريقيا حركات دينيّة مستقلّة، خاصّةً في زامبيا ونيجيريا وساحل العاج وغانا ... إلخ، كما نمت في داخل الكنائس الرسميّة - الكاثولكيّة والبروتستانتيّة - منذ حوالى أربعين سنة مناقشات حول كيفيّة تأسيس مسيحيّة أفريقيّة مرتبطة بالكنيسة العالميّة. هذا بالإضافة إلى مسألة «اللاهوت الأسود» وتحقيق الشخصيّة الأفريقيّة المستقلّة. وقد ظهر في عام ١٩٥٦ أوّل كتاب جماعيّ وقّعه كهنة أفارقة، عنوانه «كهنة سود يتساءلون».

وفي العام ١٩٧٨، ظهرت مقالة هامّة أحدثت دويًّا في أوساط المُرسَلين عنوانها «الاستقالة»، كتبها فابيان أيبُوسي اليسوعي (Fabien Eboussi s.j.). كما أصدر المؤلّف نفسه في العام ١٩٨١ كتابًا بعنوان: **مسيحيّة بلا سِحْر بين الوحي والسيطرة.**

وفي ٢٠ ديسمبر عام ١٩٧٧، أُنشئت في أكرا «الجمعيّة المسكونيّة للّاهوتيّين الأفارقة». كما بدأ ظهور «أوراق في اللاهوت الأفريقيّ» في عام ١٩٧٩.

حينما يتحدّث اللاهوتيّون عن الحركات التي انبثقت منها الكنائس الأفريقيّة المستقلّة، فإنّهم يستخدمون مصطلحات مختلفة، مثل الحركة

«المسيانيّة» أو «النبويّة» أو «الألفيّة» إلخ ... ولكنّ هذه المصطلحات تعبّر عن القضيّة نفسها : الجهود المبذولة للتحرير ، والبحث عن خلاص الشعب الذي يشعر بخطر الهلاك . ومن المعروف أن الكنيسة الرسميّة لا تنظر بعين الرضى إلى روّاد حركات الكنائس المستقلّة ، كما تنظر بعين الشكّ التي تصبّ في دائرة اللاهوت الأفريقيّ .

وممّا لا شكّ فيه أنّ إشكاليّة التحرير هي ضرورة حقيقيّة يُحتّمها الوضع في أفريقيا . والتحرير يظهر كرد فعل إزاء «العنصريّة» ونظريّة «الفصل العنصري» في جنوب أفريقيا خاصّةً ، كما رأينا على صفحات هذا الكتاب وفي خُطَب الأسقف ديزموند توتو . وأنّه لمن الصعب جدًا على مَن لا يعيشون في أفريقيا أن يتصوّروا ما كان يُمثّله «القهر العنصريّ» المبنيُّ على مؤسّسات قبل انتخابات ٢٥ أبريل ١٩٩٤. إنّ هذا النظام، الذي كان يدّعي أنّه مؤسّس على الكتاب المقدّس ، لم يكن إلّا نفيَ الكتاب المقدّس نفيًا متجسِّدًا . ومن الغريب كُلّ الغرابة أنّ الكنائس الرسميّة رضيت فترة طويلة عن هذا النظام . وما يجب أن نفهمه أن «المسيانيّة» التي بشّرت بها الكنائس المستقلّة في جنوب أفريقيا ليست بأيّ حال من الأحوال نتيجة لحركات شعوذة قام بها السود ، بل إنّها قراءة ممارسة الإنجيل الأفريقيّة . وهي القراءة الوحيدة الممكنة لشعب مقهور سحقه سكّان جنوب أفريقيا البيض الذين كانوا يعتبرون أنفسم شعب الله المختار .

وهكذا نرى في جنوب أفريقيا إطارًا مختلفًا عنه في دول أمريكا اللاتينيّة . فأوّل الذين رفعوا أصواتهم واتّجهوا إلى الله ليُحرّرهم من القهر ، هم الشعوب المقهورة أنفسها . وأمّا في أمريكا اللاتينيّة ، فإنّنا نجد أنّ الذين عبّروا عن آلام شعوبهم في لاهوت التحرير لم يكونوا من الهنود أصحاب

البلاد الأصليّين ولا كانوا العبيد القدماء، بل كانوا نُخبة مثقّفة خرجت من صفوف المهاجرين الغربيّين.

إنّ إشكاليّة أفريقيا فرضت نفسها كردّ فعل إزاء الاستعمار، وهذا ما حاولت أن تفعله الكنائس المستقلّة والشِيَع المسيحيّة التي نشأت في المستعمرات القديمة. فكان الاستعمار وسيلة للسيطرة السياسيّة والاقتصاديّة والثقافيّة على شعوب أفريقيا. ولم يكن غريبًا على الحركات المسيانيّة الأفريقيّة أن تأخذ طابعًا وطنيًّا وسياسيًّا ولاهوتيًّا في مواقفها من الاستعمار؛ فالتجربة الأفريقيّة تلتقي تجربة أمريكا اللاتينيّة؛ ولكن ما هو أكثر مأساويّةً في أفريقيا هو المشروع الاستعماريّ الذي أدّى إلى «تلاشي الثقافة» الأفريقيّة. وبالتالي، فعلى أيِّ مُفكِّر لاهوتيّ أفريقيّ أن يضع هذا التلاشي الثقافي في صُلب اهتماماته. وإذا كان البُعد السياسيّ في اللاهوت الأفريقيّ يُعرَّف بأنّه جهود المقهورين للتحرُّر من النظام الاستعماريّ، فعلينا أن نقول إنّ هذا البُعد لا يزال مهمًّا حتّى بعد التحرُّر من الاستعمار، لأنّ القهر السياسي ما زال يُمارَس في الأنظمة السياسيّة المستقلّة نفسها. وتقع على اللاهوت مُهمّة نبويّة يجب أن تُساير مُهمّة الإنجيل النبويّة. كما أنّه على اللاهوت أن يتحرّر من الأيديولوجيّات الخادعة.

إنّ مشروع التلاشي الثقافي كان وما زال مشروعًا استعماريًّا وهو يُعتبر أخطر ما يعانيه الإنسان الأفريقيّ؛ فالهدم لم يقصد اللغات المحليّة والفنون فحسب، ولكنّه طال المجتمعات نفسها بكل مؤسّساتها السياسيّة والاقتصاديّة والثقافيّة. وخلاص الإنسان الأفريقيّ يأتي أوّلًا من خلال بعث ثقافته من الفَناء. وفي الثقافة ثمّة فنّ أفريقيّ ... إنّ من يبشّر الثقافة الأفريقيّة يجب أن يسمح للفنّ الأفريقيّ بأن يصبح لغة جديدة لبعث

الشعب المسيحيّ الأفريقيّ. ورغم أنّ التجديد الطقسيّ الذي تحتاج اليه القارّة الأفريقيّة هو أمر مشجِّع، فما يلفت النظر - بعد أكثر من ثلاثين عامًا من المجمع الڤاتيكانيّ الثاني - هو أنّ محاولات التجديد الطقسيّ لا تزال محصورةً في بعض المدن الكبيرة ويطغى عليها طابع الفولكلور، وليس تجديدًا حقيقيًّا عميقًا.

وأظنّ أنّ معيار صدق الإنجيل هو تحقيق هذا البعث في الثقافة الأفريقيّة.

الفقر الأنثروبولوجيّ والفقر البنيويّ

منذ نهاية المجمع الڤاتيكانيّ الثاني، امتدّ الحديث عن الفقراء في الكنيسة، واستطاع لاهوتيّو أمريكا اللاتينيّة تعريف ما يقصدونه بمفهوم الفقر في إطار ظروفهم الخاصّة. فالفقير في وجهة نظرهم هو «مَن لا يمتلك القِيَم المُعترَف بها في مجتمع محدّد مثل الشرف في العصور الوسطى أو امتلاك النقود في المجتمعات الرأسماليّة أو امتلاك التكنولوجيا في المجتمع المعاصر...إلخ». كما أنّ تحليلهم لأسباب التخلّف في مجتمعهم أتاح لهم أن يُبرهنوا أنّ فقرهم لصيق بالتخلّف وأنّ هذا التخلّف بدوره، هو جزء من بنية الرأسماليّة، وأنّ هذا الفَقر - كما أعلنه أساقفة أمريكا اللاتينيّة الذين اجتمعوا في پويبلا (Puebla) ١٩٧٩ - ليس مرحلة انتقاليّة بل نتيجة حتميّة لمُجمل ظروف البُنى الاقتصاديّة والاجتماعيّة والسياسيّة التي يتولّد منها هذا الفَقر. وإنّ مثل هذا الواقع يُحتِّم تحوُّلًا سياسيًّا اجتماعيًّا اقتصاديًّا، تحوُّلًا عميقًا لجميع هذه البُنى والظروف التي تولِّد الفَقر.

ويمكن تطبيق مثل هذا الطرح للفَقر على وضع أفريقيا ، مع الفرق بين الحالتين: إنّ مشكلة الفقر من جهة أخرى في أمريكا تُعرَض من منطلق «الملكيّة» في حين أنّها في أفريقيا يجب أن تُعرَض على مستوى «الوجود» نفسه .

ففي أمريكا اللاتينيّة ، نجد أنّ مكافحة الفقر مرتبطة بفكرة الصراع الطبقيّ . ويُمكن أن ينحصر الكفاح في ملكيّة الخيرات والمشاركة في السلطة فحسْب . وأمّا في أفريقيا فنجده يتركّز بوجه خاصّ على المصالحة بين الناس والمشاركة العادلة والأخويّة .

قد توجد ابحاث عديدة عن قضيّة «التخلّف» في أفريقيا . ولكن ليس من بينها بحث واحد عن «الفقر». والكتاب الوحيد الذي يتحدّث عنه [٥] وقد ألّفه ألبير تيڤويدجريه (Albert Tevoédjéré) يختصّ بالعالم الثالث عامّة ولا بأفريقيا على وجه التحديد.

إن مشكلة الفقر في أفريقيا يجب عرضها اذاً من منطلق «الوجود» من عدمه ، وما يدور في رواندا وزائير وبوروندي والصومال . .. إلخ . لهو أكبر دليل على ذلك . ولا يكون العرض على مستوى معضلة الفقر بمعناها المادّيّ فحسب ، بل السياسيّ والثقافيّ أيضًا . وليس هذا الفقر الأفريقيّ ثمرة التخلّف البِنيويّ وحده ، بل هو ناتج عن عمليّة التلاشي الثقافيّ التي تحدّثنا عنها سابقًا ؛ ولهذا السبب يُطلق بعض اللاهوتيّين الأفارقة على هذا الفقر عبارة «الفقر الأنثروبولوجيّ» .

---

(٥) **الفقر غنى الشعوب** *La Pauvreté, richesse des peuples.*

تتضمّن مشكلة الفقر قبل كلّ شيء نفي إنسانيّة الإنسان الأسود بواسطة قوى القهر. فما من فقر أعظم من أن يُجرَّد الإنسان من كيانه. وكما ذكرنا سابقًا، فإنّ عمليّة النفي هذه تشمل الثقافة والاقتصاد والمجتمع في جميع مؤسّساته. فالإنسان الأفريقيّ يجد نفسه غريبًا في أرضه، فاقدًا شخصيّته وثقافته؛ وبالرغم من أنّه يعيش في قارة من أغنى قارات العالم، إلّا أنّه يُعتبر أفقر إنسان على وجه الأرض. وأخطر من ذلك، فإنّ الثقافة الاستعماريّة لم تُفرِغه من جوهره فحسب، بل علّمته كيف يحتقر ذاته، وكيف يهدم ذاته بذاته. وتعاني أحيانًا شعوب أفريقيا المستقلّة مواقف أشدّ مأساويّة ممّا عانته تحت نير الاستعمار.

إنّ «الفقر الأنثروبولوجيّ» هُوّة لا قرار لها. فلا المُرتّبات العالية في جنوب أفريقيا، ولا الشفقة التي يُبديها قدامى المستعمرين على الأفارقة، ولا ما يقوم به رجال السلطة اليوم، ولا الدعاية الأيديولوجيّة التي تدّعي الثوريّة، ولا أيّ شيء يمكنه تغيير حالة «التلاشي» التي يعيشها الإنسان الأفريقيّ. إنّ إعادة الكرامة والاعتراف بكيان هذا الإنسان المقهور هما فقط السبيل الوحيد لإحداث التغيير المنشود.

نستنتج ممّا سبق أنّ «الفقر الأنثروبولوجيّ» هو نفي الإنسان الذي وصفه الكتاب المقدّس بأنّه مخلوق على صورة الله كمثاله، وأخ ليسوع المسيح ابن الله المُتجسّد وهيكل الروح القدس. إنّ الفقير في الكتاب المقدّس يتقدّم إلى الله بصفته إنسانًا ضعيفًا، بدون موارد وبدون سند إنسانيّ، ويعترف بخطيئته، ويبتهل إلى الله كي يُنقذه ويُحرِّره من حالة الخطيئة والبؤس التي يعيش فيها. وبحسب الكتاب المقدّس، لا يقبل الفقير الخطيئة ولا يقبل أن يظلّ في حالة البؤس، بل على العكس من ذلك فإنّه

يتّجه إلى الله . وليست التطويبات الإنجيليّة دعوة إلى البؤس ، بل هي دعوة إلى شحذ القوى ، وهي رسالة رجاء وتحرير لفقراء يهوه .

لذلك فالقراءة الأفريقيّة من منطلق الظروف التي يعيشها الناس ستسمح للمسيحيّين بأخذ موضوع التحرير، كما جاء في الكتب المقدّسة، على مأخذ الجدّ منذ أن حدث «الخروج» من مصر عن يد موسى ، وحتّى العهد الجديد عن يد يسوع المسيح .

وسيتضح من هذه القراءة أنّ رسالة الخلاص في التحرُّر من الشريعة الخطيئة الموت عن يد يسوع المسيح لا تقتصر على رفض عمليّة التلاشي الأنثروپولوجيّ وإدانته ، بل إنّها برنامج متكامل لردّ اعتبار البشريّة على خُطى المسيح . إنّه مشروع تأسيس لاهوت التنمية الأفريقيّ .

خاتمة

بعد إجراء الانتخابات الديمقراطيّة التعدّديّة في دولة جنوب أفريقيا في أبريل ١٩٩٤، وتولّي الرئيس مانديلا قيادة الدولة، تولّدت آمال كبار لدى الرأي العام العالميّ والرأي العامّ في جنوب أفريقيا في إتمام عمليّة التحوّل الاقتصاديّ والسياسيّ والثقافيّ ليتواكب مع الزوال الرسمي للمؤسّسات والقوانين العنصريّة. أمّا على مستوى القارة الأفريقيّة، فإنّ دولة جنوب أفريقيا مرشّحة – إذا سارت الأمور إلى الأمام – لأن تلعب دورًا هامًّا على الساحة الأفريقيّة، لما فيها من عناصر القوّة الاقتصاديّة والصناعات المتطوّرة. فهي تُعتبَر من أكثر الدول الأفريقيّة تطوّرًا وتملك قاعدة صناعيّة قويّة[1] ولا شكّ أنّ للقوى الاستعماريّة دورًا كبيرًا في هذا التقدّم.

وبالفعل، بدأت بشائر هذا التحوّل في الداخل والخارج: ففي الداخل وُضع الدستور الذي تمّت على أساسه انتخابات أبريل ١٩٩٤، وقد يستمرّ

(١) د. عبد الملك عودة: «السياسة الخارجيّة لدولة جنوب افريقيا»، مجلة **السياسة الدوليّة**، القاهرة، أبريل ١٩٩٥، ص ١٨٨ – ١٩١.
– د. عبد الملك عودة: **أفريقيا ومُتغيّرات ١٩٩٤** – كتاب **الأهرام الاقتصادي**، العدد ٨٧، القاهرة، أبريل ١٩٩٥.
– السفير أحمد طه محمد: «السياسة الاستراتيجيّة لدولة جنوب أفريقيا»، في **السياسة الدوليّة**، أبريل ١٩٩٥، ص ١٩٢ – ١٩٦.

حتّى ١٩٩٩ حيث الانتخابات الجديدة والاعتماد على الدستور الدائم . . . وأصبح السود متساوين مع البيض من حيث الحقوق والواجبات ، بعد حوالى أربعمائة سنة من الفصل العنصريّ . وبدأت الحواجز التعليميّة والسياسيّة والاقتصاديّة والثقافيّة تتصدّع لتترك المكان للتجانس والتفاعل . إلّا أنّ هذاالمخاض العسير سيتطلّب وقتًا طويلًا ولن يخلو من التعثُّر والمخاطرة ؛ فتحقيق المساواة الاقتصاديّة يفترض ميزانيّة ضخمة ووقتًا طويلًا لتدريب السود على المشاركة الفعّالة في التحوُّل الاقتصاديّ .

كذلك يفترض التحوُّل الاجتماعيّ كسر العزلة التي فُرضت على السود ، وهذا يستدعي مالًا وجهدًا وتكيُّفًا نفسيًا . . . إلخ .

أمّا عن عمليّة التحوُّل الثقافي، فهي محفوفة بالمخاطر بعد أن اعترفت الدولة الجديدة بإحدى عشرة لغة رسميّة في البلاد ، ممّا يتطلّب تحوُّلات بنيويّة يجب أن تعتمد على التعليم والمناهج التي وُضعت تحت الإدارة العنصريّة .

وعلى الصعيد السياسيّ ، لا شكّ أنّه لا بدّ من دمج زعماء القبائل في العمليّة السياسيّة للقضاء على الثغرات القبليّة والتقسيمات الطائفيّة والعرقيّة(٢) .

أمّا على الصعيد الخارجيّ ، فقد تخلّت الدولة الجديدة عن سياسة زرع المنازعات والقلاقل في الدولة المجاورة مثل أنجولا وموزمبيق وناميبيا . . .

---

(٢) عاطف شحات سعيد : **التحوّلات السياسيّة في جنوب أفريقيا منذ بداية التسعينات** . بحث غير منشور قُدِّم سنة ١٩٩٤ - ١٩٩٥ لقسم النظم السياسيّة والاقتصاديّة في معهد البحوث والدراسات الأفريقيّة بجامعة القاهرة .

وثبّتت سياسة التعاون الاقتصاديّ بشكل ملموس في السنوات الأخيرة بعد سقوط الحظر الدوليّ عنها.

مطلوب تحرير قارّة

على الرغم من سقوط آخر قلاع العنصريّة في العالم قاطبة بسقوط النظام العنصريّ من دولة جنوب أفريقيا – وإن كان بصفة قانونيّة – في أبريل عام ١٩٩٤ فإن اندلاع الحروب والقلاقل، في أنحاء متفرّقة من القارة السوداء، لا يبشّر بنهاية قريبة لهذه الآلام. فما زالت الحروب الأهليّة مشتعلة في الصومال ورواندا ثم بوروندي وزائير، وما زال الحكم العسكريّ في نيجيريا قائمًا والصراع في ليبيريا مستمرًا، ناهيك عمّا تعانيه أنغولا رغم الاتفاق الذي راعته الأمم المتّحدة مع حركة يونيتا، وعن الحرب المجنونة في السودان بين شماله وجنوبه ... إنّ جميع هذه المنازعات تجعل دور الكنيسة والمسيحيّين في علاج هذه الجروح أكثر أهمّيّة منها في أيّ وقت مضى، وتُضفي على لاهوت التحرير مسؤوليّات جديدة.

وكما ذكرنا في كتابنا السابق، فإنّ سقوط الاتّحاد الوسڤيتيّ، وسيطرة القطب الواحد على العالم قد ساهم في زيادة معاناة الدول الفقيرة وخاصّة دول القارة الأفريقيّة. فقد بدأت الولايات المتّحدة الأمريكيّة منذ سقوط الاتّحاد السوڤيتيّ عام ١٩٨٩ تُرتّب العالم على هواها وبحسب استراتيجيّتها الجديدة؛ وبما أنّ البلدان الفقيرة لا تُمثّل لها مصلحة تُذكر، فقد سقطت في دوائر النسيان وتجرّعت شعوبها كأس المهانة والحروب القبليّة نتيجة لضعف الدولة المركزيّة وعدم قدرتها على الوفاء بمتطلّبات التنمية في بلادها. هذا ما حدث في الصومال عام ٩٢، وما حدث في رواندا عام ٩٤، والبقيّة تأتي.

وفي نهاية هذا الكتاب ، نتطلّع إلى فجر جديد يُضمِّد جراح القارة السمراء . . . ولن يتأتّى هذا الفجر إلّا إذا تضافرت جهود أبناء القارة نفسها لتهيئة الظروف المواتية للخروج من حالة التلاشي والعدميّة التي زرعها الغرب واستسلم لها قادة ومفكّرو أفريقيا أنفسهم .

وما زال للاهوت التحرير الأفريقي دوره الضروري ، فرغم اختلاف لاهوتيّي التحرير في أفريقيا حول الأولويّات التي يجب وضعها في الصدارة ، فإنّ لاهوت التحرير الأفريقيّ بجميع روافده التنمويّة والسياسيّة والثقافيّة مُطالَب اليوم أكثر منه في أيّ يوم آخر بالتصدّي لها لبناء الشخصيّة الأفريقيّة .

كما أنّ عمليّة التحرير - كما رأينا في خطب ديزموند توتو - هي مطلب الإنجيل ، فهي تشحذ الهمم في سبيل التخلّص من النزاعات العنصريّة والقبليّة والأيديولوجيّة الضيّقة للوصول إلى بناء الإنسان وقد أُعيدت إليه صورته الصحيحة ليقبل بدوره في المشاركة في بناء العالم الجديد .

ولقد أصبحت الآن مهمّة لاهوت التحرير الأفريقيّ الجديدة هي الاستفادة من الظروف الدوليّة المواتية ، بعد سقوط العنصريّة في جنوب أفريقيا وانتشار ثقافة حقوق الإنسان ، فعلى المفكّرين القادة واللاهوتيّين في هذه القارة أن يوحّدوا مجهوداتهم لتنسيق المواقف وبناء قاعدة عمليّة صلبة تصلُح للانطلاق بها إلى آفاق جديدة كاحترام حقوق الإنسان الأفريقيّ ، وبناء الديمقراطيّة ، والتخلّص من القبليّة ، ونشر التعليم والقدرة على تحليل الواقع وابتكار الحلول للمشاكل القائمة .

وماذا عن مصر

وفي مصرنا العزيزة، نحن أحوج ما نكون إلى التفكير في حلّ مشكلاتنا من منطلق إعمال العقل في المعضلات الراهنة: الاجتماعيّة والاقتصادية والدينيّة والثقافيّة ... إلخ. والنظر إلى الدين نظرة إيجابيّة ومحرِّرة حقيقة ثابتة في تاريخنا الطويل والممتد. فنحن نفتخر بأنّ فكرة التوحيد نشأت وترعرعت عند إخناتون في العصر الفرعونيّ قبل ظهور الديانات السماويّة المعروفة: اليهوديّة والمسيحيّة والإسلام. كما أنّ أكبر تجمُّع لليهود الموحِّدين كان في الإسكندريّة حيث تمت أشهر ترجمة («الترجمة السبعينيّة») للكتاب المقدّس من العبرية إلى اليونانيّة في القرن الثالث قبل الميلاد. وقد انتشر الدين المسيحيّ منذ القرن الأولّ ميلاديّ في ربوع مصر، وكان كرسيّ الإسكندريّة من أوائل الكراسي البابويّة المنتمية إلى عصر الرسل الحواريّين. وقد دخل الإسلام إلى مصر منذ القرن الأول لظهوره في الجزيرة العربيّة في النصف الأوّل من القرن السابع الميلادي.

هذه الشواهد التاريخيّة كلُّها تُظهر أنّ الشعب المصريّ شعب متديِّن له الريادة في التغيير كلّما كان الدين عاملًا على التحرير ... فلم يكن الانتقال من دين إلى دين يهدف لمجرّد التغيير ولكنّه كان تعبيرًا عن استجابتهم للحقائق السامية التي حملها كل دين لتهذيب الإنسان وإعادة تأصيله في سرّ محبة الله.

وفي الوقت الحاضر نحن مدعوّون لإعادة النظر في كيفيّة فهمنا للحقائق الدينيّة في ضوء التحريّات العلميّة وما تُثيره من تساؤلات حول معنى حياة الإنسان سواءٌ أكنّا مسيحيّين أم مسلمين. ولا عجب في أن نجد في كيفيّة فهم المؤمنين من الديانات المختلفة في منطقتنا للنص الدينيّ

متشابهة جدًا رغم الاختلاف في مُعطيات الوحي الإلهي. فالنظرة التقليديّة الجامدة التاريخيّة للنص الدينيّ هي السائدة عند المسيحيّين والمسلمين على السواء.

ولاهوت التحرير يمكن أن يدفعنا إلى الاجتهاد في فهم النص الدينيّ من مُنطلق العلوم الحديثة: علم النفس وعلم اللغة والاجتماع والاقتصاد والفلسفة والتاريخ والأنثروپولوجيّة (علم الإنسان) ... إلخ. ولكن كيف يمكن أن يتحقّق في مصر وهناك أكثر من ٥٠٪ من الشعب أميّون: وهذا يعني أنّ حوالى ٣٥ مليون مصريّ لا يُمكنهم قراءة الكتب المقدّسة وبالتالي لا تصلهم الرسالة الدينيّة إلّا بواسطة آخرين ... عن طريق السمع. فهم غير قادرين على الرجوع إلى المنبع (الكتب المقدّسة) لكي يتحقّقوا بأنفسهم عن طريق الدرس والتعمّق من فحوى ما يصل إلى أسماعهم ... فكيف يمكنهم التمييز بين الغثّ والثمين في ما يسمعونه في وقت أصبحت فيه المتاجرة بالدين بضاعة رائجة لأصحاب أشرطة التسجيل والڤيديو ودعاة الفقه من كلّ دين. المسألة معقّدة للغاية. فإذا علمنا أنّ ملايين المؤمنين في مصر من مسيحيّين ومسلمين لا يصل إدراكهم إلى معنى وصول الإنسان إلى القمر وما يفترضه ذلك من قدرة العقل البشريّ على الوصول إلى أعقد الاكتشافات، فإنّنا لا نستغرب من سيادة العقليّة الميثولوجيّة[٣] على حياتنا الثقافيّة في مصر والبلدان العربيّة. فصار التركيز على حرفيّة النص الدينيّ والتراثيّ يأتي على حساب إعمال العقل. أضِف إلى ذلك أنّ مَن لا يستطيع قراءة الكتب المقدّسة لا يمكنه أيضًا متابعة تطوّرات التكنولوجيا المختلفة –

---

(٣) الميثولوجيا علم الأساطير.

بدءًا من استخدام الكاتالوجات لإصلاح السيارات إلى التعامل مع الحاسب الآلي وفكّ شفرة أطباق الاستقبال الفضائيّة. فكل ذلك لا يفترض الإلمام بالقراءة باللغة العربيّة فحسب، بل معرفة اللغات الأجنبيّة معرفة جيّدة أيضًا كما انّ الحياة السياسيّة وأوّل مظاهرها ممارسة الديمقراطيّة واحترام حقوق الإنسان تصبح من الأمور المستعصية على شعب أكثر من نصفه لا يفرّق بين الحوار بالحجّة والمنطق للوصول إلى حقائق الأمور والحوار بالمدفع لإملاء الرأي على الآخرين تحت عباءة الدين أو طمعًا في المنصب أو انتقامًا للشرف والكرامة . . . إلخ.

جميع هذه الأمور وغيرها لا بدّ من مواجهتها بتبنّي سلوك يستنير بالمعطيات الكتابيّة الجوهريّة التي تنصّ على العدالة الاجتماعيّة ومراعاة الضمير المهنيّ والتضامن مع الفقراء واحترام حقوق الغير: تلك القِيَم التي تدعو إليها المسيحيّة والإسلام.

ولا شكَّ أنّ مصر، التي حباها الله بمقوِّمات جغرافيّة وتاريخيّة وحضاريّة بحكم موقعها الجغرافيّ، عصمها أيضًا من التنافُر الإثنولوجيّ الموجود في الكثير من بلادنا العربيّة. والمصري لا يختلف عن أخيه المصري من حيث العرق أو الثقافة أو التاريخ ولكن يختلف في ممارسة شعائره الدينيّة فقط. وهذا الاختلاف قد حاول الكثير من الغرباء استغلاله لتوسيع الشقة بين المسيحيّين والمسلمين لإضعاف الوطن. إلّا أنّ كلّ هذه المحاولات عبر التاريخ باءت بالفشل، وإن تركت أحيانًا بعض الغصّة في نفوس أبناء الوطن الواحد؛ خاصّة وأنّ المسيحيّين – بصفتهم أقليّة عدديّة – يقع عليهم ما يُسمَّى في علم اجتماع الأقليات ظاهرة «كبش الفداء»: ففي وقت الأزمات قد تحاول الأغلبية – سواء أكانت إثنيّة أم دينيّة أم ثقافيّة – أن تُفرِّغ

احباطاتها النفسيّة وتصُّبَ جامَ غضبها على أضعف الحلقات في المجتمع وهي «الأقلّيّة» . . .

وقد يعطينا مفهوم الألم الموجود في هذا الكتاب أنوارًا تُساعدنا على بلوَرة فهمنا نحن المصريّين والعرب - أقلّيّة كنّا أم أغلبيّة - للمعاناة التي نتحمّلها للخروج من الإحساس بالعجز الحضاريّ، واليأس من كثرة وضخامة التحديّات التكنولوجيّة والثقافيّة. فيتحوّل هذا اليأس إلى بأس، والعجز إلى انطلاق واجتهاد في كلّ أمورنا لنتبوّأ مكاننا اللائق في خضمّ عالم اليوم في جدليّة خلّاقة بين العقل والنقل تحرّرنا من جمودنا الروحيّ والعقليّ. والله المُستعان.

فهرس المحتويات

مقدمة ٥

الباب الأوّل : لمحة تاريخيّة ١١

الفصل الأوّل : المطران ديزموند توتو ١٣

الفصل الثانتي : نبذة تاريخيّة عن دولة جنوب أفريقيا ٣٤

الباب الثاني : ديزموند توتو واللاهوت الأسود ٤٩

الفصل الثالث : اللاهوت الخاصّ بالسّود ٥٠

الفصل الرابع : البحث عن الأصالة
والكفاح من أجل التحرير ٦٥

الفصل الخامس : الألم الذي يعانيه الإنسان الأسود ٧٤

الفصل السادس : المسيحيّة والفصل العنصريّ ٨٤

الفصل السابع : هل اللاهوت الأفريقيّ هو لاهوت السّود ؟ ٩٧

الفصل الثامن : لاهوت التحرير في أفريقيا ١٠٥

الباب الثالث : بين لاهوت التحرير الأمريكيّ
اللاتينيّ ولاهوت التحرير الأفريقيّ ١١٧

خاتمة ١٣٣

فهرس المحتويات ١٤١

أنجزت **المطبعة الكاثوليكيّة ش.م.ل**
طباعة هذا الكتاب في الخامس عشر من نيسان ١٩٩٧

٠١٧٧٠٢ - ١،٥ - ١٩٩٧/٤/١٥

منشورات :
دار المشرق ش.م.م
ص.ب. ٩٤٦ - بيروت، لبنان

التوزيع :
المكتبة الشرقية - ساحة النجمة
ص.ب : ١٩٨٦ - بيروت، لبنان

صدر من سلسلة «دراسات لاهوتيّة»

- **مريم أمّ الربّ ورمز الكنيسة**

  بقلم ماكس توريان، تعريب الأب خليل رستم
- **الإنجيل الحيّ في الكنيسة**

  بقلم الأب برنار سيسبويه، ترجمة المونسنيور جرجس المارديني
- **الأسبوع العظيم، في آلام المسيح وموته**

  بقلم رومانو كوارديني، ترجمة المونسنيور جرجس المارديني
- **قيامة المسيح**

  بقلم رومانو كوارديني، ترجمة المونسنيور جرجس المارديني
- **يسوع المسيح في تقليد الكنيسة**

  بقلم الأب فاضل سيداروس اليسوعيّ
- **خلاصة اللاهوت المريميّ**

  بقلم الأب أوغسطين دوپره لاتور اليسوعيّ
- **بين وحي الله وإيمان الإنسان**

  بقلم الأب فاضل سيداروس اليسوعيّ
- **من أنتِ أيّتها الكنيسة؟**

  بقلم الأب فاضل سيداروس اليسوعيّ
- **سرّ الله الثالوث – الأحد**

  بقلم الأب فاضل سيداروس اليسوعيّ
- **لاهوت التحرير في أميركا اللاتينيّة**

  بقلم الأب وِلْيَم سِيدْهُم اليسوعيّ
- **دراسة في الإسكاتولوجيا، الموت والقيامة، السماء والمطهر وجهنّم**

  بقلم الأب أوغسطين دوپره لاتور اليسوعيّ، ترجمة الأب صبحي حموي اليس...
- **دواعي الإيمان في عصرنا**

  بقلم الأب جيوڤاني مارتِنتّي اليسوعيّ، ترجمة الأب يوسف قوشاقجي والدكتو...
- **لاهوت التحرير في أفريقيا**

  بقلم الأب وِلْيَم سِيْدهُم اليسوعيّ

